خطابة يوم السقيفة
دراسة تداولية في مقصدية القول والأفعال الإنجازية

د. حسن بن احمد النعمي
قسم الأدب– كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

خطابة يوم السقيفة دراسة تداولية في مقصدية القول والأفعال الإنجازية

د. حسن بن احمد النعمي

قسم الأدب– كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تاريخ تقديم البحث: ١/ ١/ ١٤٤٢ هـ تاريخ قبول البحث: ١٤/ ٤/ ١٤٤٢ هـ

ملخص الدراسة:

يسلّط هذا البحث الضوء من وجهة الدرس التداولي على الحوارات والمساجلات القصيرة التي دارت بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين يوم السقيفة، وهي حوارات ومساجلات تندرج ضمن الجنس الخطابي العام. وتنبع أهمية هذا البحث من ثلاثة جوانب؛ أولهما: خصوصية مقام التخاطب وهو يوم السقيفة؛ اليوم الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختلف أصحابه–رضي الله عنهم أجمعين– حول من هو أولى القوم بخلافة المسلمين من بعده، هل المهاجرون أو الأنصار؟ ودارت تحت سقيفة بني ساعدة التي تجمّع تحتها الصحابة حوارات ومساجلات أخذتْ قيمةً تاريخيةً عظيمة، ودلالةً تأسيسية مهمة، وما فتئت محل الاستشهاد والاستدعاء عند وقوع الحوادث المشابهة. وتتمثّل الأهمية الثانية لهذا البحث في خصوصية المنهج التداوليّ ونجاعته الإجرائية في دراسة هذه النصوص؛ لطبيعة هذه الأقوال التي صدرت في مقام جدال وحوار وسجال، فقد كان كلُّ قائل يبتغي إقناع الآخر بأطروحته وخياراته، وقد استعمل المتخاطبون في هذا الفضاء الحجاجي من الوسائل الإقناعية، ومن مسالك تصريف مقاصد القول والتوجيه الخطابي ما يتيح تطبيق هذا المنهج والإفادة من مفاهيمه دون سائر المناهج النقديّة؛ وذلك لطبيعة الخطاب التواصلي والتفاعل القولي الذي وجهته مقاصد المتخاطبين، فبرزت الأفعال الإنجازيّة بوصفها الركيزة الرئيسة في هذه الدراسة، وحاول البحث جاهدًا تتبّع مقاصد هذه الأفعال والكشف عن وظيفتها التواصليّة والمقصديّة، واكتفى بها دون الآليات التداوليّة الأخرى من مقام وسياق وافتراض مسبق وغير ذلك من الأدوات التي يمكن أن يعالج بها هذا الخطاب في دراسات أخرى مكملة لهذه الفكرة. أمّا الأهمية الثالثة فتتمثّل في أنّ هذه النصوص ذات خصوصية في النثر العربي القديم؛ لكونها لأناس من فصحاء العرب وبلغائهم، وهم الصحابة الأجلاء، الذين تشبعوا بالخطاب القرآني وبأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. وأرجو أن أضيف بهذا الدرس جديدًا، وأفتح به بابًا لقادمين ليعطوا هذه النصوص حقّها من النقد والتحليل؛ سيّما أنّها لم تنل حظّها بعدُ من أقلام الباحثين.

الكلمات المفتاحية: فن الخطابة–يوم السقيفة– التداولية– مقصدية القول أو الأفعال الكلامية– الأفعال الإنجازية.

Elocution of Saqifa Day
A pragmatic study of the intent of utterance and performative verbs

Dr. Hassan bin Ahmad Al_Na'mi
Department of literature, Rhetoric and criticism - Faculty of Arabic Language
Imam Mohamed Ibn Saud Islamic University

Abstract:

This research aims to highlight the discussion and the concise deliberations, which took place between the companions of the Prophet (PBUH), on Saqifa day, from a pragmatic perspective; which discussion and deliberations fall within the general discourse. However, the importance of this research emanates from three aspects, namely the particularity of the discourse situation or site, which was the Saqifa day; the day on which Prophet Mohamed (PBUH) passed away, and his companions disagreed upon who would assume the caliphate after his death; the immigrants (Al-Muhajrun) or the "Ansar", the supporters?

The companions of the Prophet met together in Saqifa Bani Sa'ida, and they conducted historic and great discussion and deliberation; which were of a unique constituent significance, which are often cited and invoked upon the occurrence of similar incidents.

The second importance of this research is associated with the particularity of pragmatics, and its procedural efficacy with respect to studying literary texts; taking into account the special nature of the speeches which were delivered, in that situation involving argument and dialogue; where everyone was attempting to convince the others with his opinion and option. During the deliberations and discussions, the participants resorted to various methods of persuasion, difference approaches of negotiation and multi-communicative techniques, leading to actual achievements which are the core issue of this study; with the purpose of applying such approach and making use of the concepts thereof, without relying on all other critical approaches; due to the nature of the communicative discourse and verbal interaction, revealed by the intentions of the persons who participated in the deliberations.

This research attempts to reveal the actual achievements, which the core issue of this study, as well as investigating the communicative and purposive function of such intentions. The research is limited to these pragmatic mechanisms, including situations, context and assumption, that may be used in other complementary studies to this notion.

Thirdly, these literary texts have a particular significance in ancient Arabic prose; because they were produced by eloquent and fluent Arabs, were the honorable companions of the Prophet (PBUH), who were influence the eloquence of the Holy Quran and the Prophet's sayings.

The researcher is hopeful to produce a new breakthrough in order to instigate others to give due attention to these literary texts through delight criticism and analysis, particularly such texts have not been dealt with by researchers earnestly.

key words: (rhetoric) Public speaking- Alsaqifa Day- Pragmatics -Speech acts- Illocutionary acts.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيسلط هذا البحث الضوء على الحوارات والمساجلات القصيرة التي دارت بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين يوم السقيفة من وجهة الدرس التداولي، وهي حوارات ومساجلات تندرج ضمن الجنس الخطابي العام، وليست خطباً بالمفهوم التجنيسي لمصطلح "الخطبة"، كما سيتبين لاحقاً، ولذلك عنونت البحث بـ"خطابة يوم السقيفة" عوضاً عن " خطب يوم السقيفة".

وتنبع أهمية هذا البحث من جانبين اثنين، أولهما: خصوصية المدونة المختارة، وهي مدونة يوم السقيفة، وهو اليوم الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختلف أصحابه–رضي الله عنهم أجمعين– حول من هو الأولى بخلافة المسلمين من بعده، هل الأولى بها المهاجرون أو الأنصار؟ ولذا عُدَّ يوم السقيفة يوماً خالداً في حياة المسلمين، وكان يوم اختبار عظيم لهم، إذ اجتمع على الصحابة في ذلك اليوم مصيبتان، وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما انعكس من ذلك على نفوسهم من حزنٍ عميق، ووجدٍ كبير، والمصيبةُ الأخرى خوفهم من انفراط عقد المسلمين، وضياع الدين وعودة الجاهلية، التي لم يزالوا قريبي عهد بها، ويضاف إلى هاتين المحنتين افتقار التجربة السياسية في مجتمع المدينة قبل مجيء الإسلام إلى أعراف إدارة شؤون الحكم وتقاليد تدبير السياسة العامة للمجتمع خارج سياق العصبية القبلية أو الملك الدنيوي؛ فمن ثم أخذت هذه المحاورات والمساجلات التي دارت ذلك اليوم تحت سقيفة بني

ساعدة قيمةً تاريخيةً عظيمة، ودلالةً تأسيسية مهمة، وما فتئت محل الاستشهاد والاستدعاء عند وقوع الحوادث المشابهة.

وأمّا الأهمية الأخرى لهذا البحث فتكمن في خصوصية المنهج التداوليّ وتوقع نجاعته الإجرائية في دراسة هذه النصوص؛ لطبيعة هذه الأقوال التي صدرت في مقام جدال وحوار وسجال، فقد كان كلُّ قائل يبتغي إقناع الآخر بأطروحته وخياراته، وقد استعمل المتخاطبون في هذا الفضاء الحجاجي من الوسائل الإقناعية، ومن مسالك تصريف مقاصد القول والتوجيه الخطابي ما يتيح لنا تطبيق هذا المنهج والإفادة من مفاهيمه دون سائر مناهج دراسة النثر الأدبي، كما أنّ هذه النصوص كانت ذات خصوصية أخرى في النثر العربي القديم؛ لكونها لأناس من فصحاء العرب وبلغائهم، وهم الصحابة الأجلاء، الذين تشبعوا بالخطاب القرآني وبأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقسّمتُ هذا البحث قسمين؛ الأول نظريّ، واستعرضت فيه جوانب مهمة، متصلة بالمتن المدروس، وجعلتها أشبه بالمهاد للقسم الثاني الذي اشتمل على الجانب التطبيقي، وتوزّع الأول في ثلاثة محاور؛ الأول منها عن آليات رواية أخبار يوم السقيفة، حيثُ بدا لي أنّ الوقوف على هذه الآليات من الأهميّة بمكان؛ وذلك للفروق الكبيرة التي ألفيتها في رواية أخبار يوم السقيفة بين المصادر المختلفة، الحديثية والتاريخية والسيريّة والأدبيّة؛ فلذا خصصت لذلك مطلبًا بيّنت فيه هذه الاختلافات ومنازعها وما بدا لي من غاياتها، وما ترتّب على ذلك من اختلاف في النصوص، ثمّ كان المحور الثاني عن هويّة هذه النصوص ومقصديّتها؛ وذلك لأنّ أنماطها جاءت هجينة بين الخطب والحوارات

والمساجلات، فكان من الصعب تصنيفها ضمن جنس نثري واحد من هذه الأجناس، أمّا المحور الثالث من محاور الدراسة النظريّة فكان عن الوشائج التداوليّة بين المقصديّة والأفعال الإنجازيّة، وفي ذلك بيّنت مبررات اختيار المنهج التداوليّ، والصلّة التواصليّة بين مقاصد القول والأفعال الإنجازيّة.

أمّا القسم الثاني فقد خصصته لتحليل هذه الخطابة وفاق المنهج الذي اخترته، فكان عن الجانب التطبيقيّ، وقد قسّمتُه إلى خمسة أجزاء وفقًا لعدد الأفعال الإنجازيّة عند كلّ من جون أوستين(ت١٣٧٩هـ) وجون سيرل، وهما لغويان طورا الممارسات العربية القديمة في "الأفعال" في النظرية العربية لدى البلاغيين أولاً، ولدى وعلماء أصول الفقه لاحقاً، ولاسيما في باب "الخبر والإنشاء" عند البلاغيين، وباب "الإنشاء وفعل الأمر منه خاصة" عند علماء أصول الفقه(١)، وقد اعتمدت على مبادئ التقسيم عند سيرل، وهي: الإخباريات والتوجيهيات والالتزاميات والتعبيريات والتصريحيات، ثمّ أنهيت البحث بخاتمة أوجزت فيها أهمّ النتائج التي توصلّت إليها، وتلا الخاتمة فهرسٌ للموضوعات ثمّ ثبتٌ للمصادر والمراجع.

وبعد فعلى الرغم من القيمة العالية التي تتميّز بها هذه النصوص لم أعثر على أيّة دراسة أعطتها حقّها الأدبيّ والنقديّ، ولست أدري؛ أذلك تهيّب لهذه النصوص لما فيها من صراع بين المسلمين، ومن قضايا مصيرية بالنسبة إلى نظام

(١) انظر: نظرية أفعال الكلام العامّة – كيف ننجز الأشياء بالكلام"، جون أوستين، ترجمة عبد القادر قينيني، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩١م: ٦-٧.

الحكم، أم ظلّت بعيدة عن أقلام الدارسين جهلًا بقيمتها؟ وإن كنت أرى أن التبرير الأول لا مسوّغ له؛ إذ لم تتهيب أقلام الدارسين الخوض في دراسة القرآن الكريم تداولياً، غير آبهين بالخطأ والزلل في تأويل لفظه وتحليل معناه، أما ندرة الدراسات الأدبية التي اتجهت نحو نصوص الجلّة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أمر شاع ذكره بين الباحثين(١)، فضلاً عن أنني لم أجد- في حدود علمي- أي دراسة منهجية تداولية اتجهت إلى المدونة المستهدفة، وجل ما وقفت عليه مما اتجه نحو نصوص الصحابة لا يخرج عن جمع خطابة الخلفاء الراشدين خصوصاً، وبقية الصحابة عموما، ودراسة مضامينها وأشكالها دراسات نسقية، دون الاقتراب من الدراسات السياقية وعلى رأسها المقصدية التداولية التي يروم هذا البحث الاتجاه نحو تجريبها.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

(١) انظر الإشارة إلى ذلك في: أفاويق أدبية، أبحاث في الأدب العربي القديم، بحث "الأجناس النثرية الوجيزة للصحابة"، عبد الكريم بن عبد الله العبد الكريم، مكتبة روائع المملكة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م :١٩٧ وأصله بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية، ع١٥٩، ١٤٣٣هـ.

أولاً: آليات رواية أخبار يوم السقيفة وحواراته:

رويت حوارات يوم السقيفة[1] بين المهاجرين والأنصار بطرائق مختلفة، وبصيغ شتى في المصادر التي تناقلتها، وهي مدونات الحديث والسيرة والتاريخ ومجاميع الأدب، ولكل أهل فن طرائقهم في صياغة الرواية وبما يتوافق مع قواعد فنهم وأصوله، وبما يناسب أحياناً مذهبهم في قراءة التاريخ وتوجيهه، فنص المدونة تتوزعه مصادر شتى ذات أبعاد مختلفة وطرائق توثيق متنوعة، فكان من

(١) هي سقيفة بني ساعدة، بالمدينة المنورة، وهي ظُلّة كانوا يجلسون تحتها عند بئر بضاعة، وبنو ساعدة الذين أضيفت إليهم السقيفة هم حي من الأنصار، ينتسبون لساعدة بن كعب بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو، ومنهم سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة، وذكر المؤرخ ابن زبالة أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد بني ساعدة وجلس في السقيفة، وشرب فيها. وقد اختلف في حقيقة موضع سقيفة بني ساعدة، فمن المؤرخين من يقول إنها بداخل المدينة، في جنوبي مقعد بني حسين، ومنهم من يرى أنها بخارج سور المدينة قريبا من بئر بضاعة، ورجح الرأي الثاني كثيرون، منهم جمال الدين المطري، والسمهودي الذي أشار إلى أن سقيفة بني ساعدة كانت في منزل بني ساعدة الثالث، شامي سوق المدينة، قرب ذباب. وعبد القدوس الأنصاري ذكر أدلة كثيرة على ترجيح الرأي الثاني، ومحدداً موقع السقيفة المعاصر، ولمزيد من التفصيل حول السقيفة وتاريخها وموقعها الحالي، انظر: أخبار المدينة، محمد بن الحسن بن زبالة، جمع وتوثيق ودراسة صلاح بن عبد العزيز سلامة، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، الطبعة الأولى،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م:١٤٧-١٤٨. و: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت،١٣٧٤هـ/١٩٥٥م:٣/٨٦٠، والمغانم المطابة في معالم طابة، مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى،١٣٨٩هـ/١٩٦٩م:١٨١-١٨٢، وآثار المدينة المنورة، عبد القدوس الأنصاري، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة الثالثة،١٣٩٣هـ/١٩٧٣م:١٥٥-١٥٧.

المستحسن بسط القول في تلك المصادر، وبيان ما تفرد به كل نوع منها في مبحث مستقل يسبق التحليل التداولي للنص، ولم أكن هنا بصدد التحقيق أو الوصول إلى النص الأدق والأصح وهو أمر مستحسن ومحمود فعله- ولكنه لم يكن مما يهدف إليه هذا البحث- وربما أنجزه آخرون ممن لهم مزيد عناية بتخريج النصوص الحديثية والتاريخية وفرزها وتوثيقها، وإنما أردت هنا الوقوف على التمايز والتماثل الذي حفلت به مدونة السقيفة، وبيان أين تتوافر تلك الحوارات والمساجلات في المقام الأول.

فأقول: إن المصادر الحديثية أسندت الأخبار إلى الجلة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن حضروا تلك الوقائع، وكان لبعضهم مشاركة مؤثرة في الحدث وحواراته، بينما نجد كتاب السير والطبقات والمؤرخين-كذلك- ينطلقون من صيغ المحدثين ليبنوا سياقات جديدة، ويحدثوا إضافات تساير الطرائق التي يسلكها كتاب السير أو الأخباريون عادة، بينما مجاميع الأدب راحت تصيغ الحوارات بشكل سردي؛ ليكون مساراً سردياً قصصياً متكاملاً بحدث وحوار وشخصيات وزمان ومكان؛ فيضمن حدًّاً أدنى من الأدبية. وطرائق رواية المحدثين تدور بين الإجمال والتفصيل، بعضها تروي الخبر وتنطلق في سرد مقدماته بدءاً من لحظة علم الصحابة رضي الله عنهم بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وما تلاها من أحداث مفاجئة لهم(١)، إلى اجتماع الأنصار في

(١) انظر النقاش الذي دار بين صحابة رسول الله حول خبر وفاته، وإقسام عمر رضي الله عنه بأنه لم يمت، وإقناع أبي بكر رضي الله عنه له بموته في: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان

سقيفة بني ساعدة في اليوم نفسه وهو يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، وتداولهم الأمر بينهم في اختيار من يليه في الخلافة، فمما ورد مُجمِلاً من تلك الأحداث ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسُّنح، فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وقال عمر: والله ما كان يقع في قلبي إلا ذاك، وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم. فجاء أبو بكر- رضي الله عنه- فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقَبَّله، فقال: بأبي وأمي، طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده: لا يذيقك الله الموتتين أبداً، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك. فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر...قال: فنشج الناس يبكون، واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة. فقالوا: منَّا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم، فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني هيأت كلاماً قد أعجبني، خشيت ألا يَبْلُغُه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر، فتكلم أبلغ الناس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء. هم أوسط العرب داراً، وأعربهم أحساباً، فبايعوا عمر

للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (٣٦٦٧):٧/٢٢.

أو أبا عبيدة بن الجراح. فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ عمر بيده فبايعه، وبايعه الناس. فقال قائل: قتلتم سعد بن عبادة. فقال عمر: قتله الله"[1].

ومثل ذلك مما اعتمد الإجمالَ الروايةُ الأخرى التي تفيد بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل قياساً مضمراً حين ذكَّرَ بتقديم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه بالإمامة، وذلك فيما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الأنصار: منَّا أمير ومنكم أمير، فأتاهم عمر فقال: يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمَرَ أبا بكر أن يَؤمَّ الناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر"[2].

ومما ورد في المصادر الحديثية مُفصّلاً تلك الحوارات بتركيز أكثر على بعض التفاصيل الدقيقة لأحداث ذلك اليوم، متضمنة أسماء وحوارات وأقوالاً أضحت

---

(١) المصدر السابق، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (٣٦٦٧-٣٦٦٨)،٧/٢٤.

(٢) مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى١٤١٦هـ/١٩٩٥م، حديث رقم (١٣٣) ١/٢٢٣، وقال الشيخ أحمد شاكر: "إسناده صحيح". وصيغ المؤرخين في هذا:" فقال عمر: أيكم يطيب نفساً أن يخلف قدمين قدمهما النبي صلى الله عليه وسلم..." انظر: تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، د.ت:٣/٢٠٢، والكامل في التاريخ، عز الدين ابن الأثير، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م:٢/١٨٧.

أمثالاً، وغيرها، ما جاء في صحيح البخاري(ت٢٥٦هـ) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما فيما يرويه من خطبة عمر رضي الله عنه المشهورة التي خطب بها مرجعه من الحج في آخر عمره، ومما جاء فيها قوله:" وإنه قد كان من خبرنا حين توفَّى اللهُ نبيَه صلى الله عليه وسلم، أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا عليٌّ والزبير ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلتُ لأبي بكر: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء الأنصار، فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقيَنَا منهم رجلان صالحان[1] فذكرا ما تمالأ عليه القوم، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نُريدُ إخوانَنا هؤلاء من الأنصار، فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمرَكم. فقلت: والله لنأتِيَنَّهم، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا رجلٌ مُزمَّلٌ بين ظهرانيهم، فقلتُ: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة، فقلت:

(١) ذكر عدد من المحدثين وكتاب السير هذين الرجلين الصالحين الأنصاريين، وفي الأرجح أنهما عويمر بن ساعدة ومعن بن عدي رضي الله عنهما. انظر: مسند الإمام أحمد، ٣٣١/١، ونسب القول باسميهما إلى الإمام مالك بن أنس، وأضاف وهما ممن شهد بدراً، وانظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية،١٤١١هـ/١٩٩١م:٤٧٧/٥، والبداية والنهاية لابن كثير، تحقيق فؤاد السيد وآخرين، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨/١٩٨٨م :٢١٦/٥، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني:٣٧/٧، واسمه: عويمر(بالراء) كما هو في مسند الإمام أحمد، وورد في: تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٢٠٦/٣، والكامل في التاريخ ،ابن الأثير،:١٨٨/٢، وفي موضع آخر في فتح الباري ١٥٦/١٢: هو: عويم (بدون الراء).

ماله؟ قالوا: يُوعَك. فلما جلسنا قليلا تشهّدَ خطيبهم[١] فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فنحنُ أنصارُ الله وكتيبةُ الإسلام، وأنتم –معشر المهاجرين– رَهْطٌ، وقد دفّت دافَّةٌ[٢] من قومكم، فإذا هم[٣] يريدون أن يختزلونا[٤] من أصلنا، وأن يحضنونا[٥] من الأمر. فلما سكت أردتُ أن أتكلم، وكنت قد زورتُ مقالةً أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي لأبي بكر– وكنت أداري منه بعض الحَدِّ[٦]، فلما أردتُ أن أتكلم، قال أبو بكر: على رِسْلِك. فكرهتُ أن أغضبه، فتكلم أبو بكر، فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك

(١) ذكر الحافظ بن حجر العسقلاني بأنه ربما يكون ثابت بن قيس بن شماس، فهو الذي يدعى عادة "خطيب الأنصار"، انظر: فتح الباري، لابن حجر، ١٥٧/١٢.

(٢) الدَّافّةُ: القوم يجدبون فيمطرون، دَفُّوا يَدِفُّون. ودفَّت دافَّة أي أتى قومٌ من أهل البادية قد أُقْحِمُوا، وقال ابن دريد: هي الجماعة من الناس تُقبِل من بلد إلى بلد. انظر: لسان العرب، لابن منظور، طبعة دار المعارف، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، الطبعة الأولى، د.ت، مادة (دفف) ١٣٩٦/٣، وقال ابن حجر: "بالدال المهملة والفاء: أي عدد قليل، وأصله من الدف، وهو السير البطيء في جماعة"، فتح الباري، لابن حجر،١٥٧/١٢.

(٣) صوب الحافظ بن حجر العسقلاني في هذا الموضع ما ذكره الإمام ابن ماجه من أن هذا القول هنا لعمر بن الخطاب بزيادة:" قال عمر فإذا هم يريدون..."، مؤكداً أن هذا وهمٌ من ابن ماجه، وأن الكلام هنا ليس لعمر، بل هو لخطيب الأنصار. انظر: المصدر السابق، ١٥٧/١٢.

(٤) يختزلونا: قال ابن حجر: "يقتطعونا عن الأمر وينفردوا به دوننا، وقال أبو زيد: خزلته عن حاجته: عوقته عنها، والمراد هنا بالأصل: ما يستحقونه من الأمر"

(٥) يحضنونا: يخرجونا، قال ابن حجر: " ووقع في رواية المستملي: أي يخرجونا، قاله أبوعبيد، وهو كما يقال: حضنه واحتضنه عن الأمر: أخرجه في ناحية عنه واستبد به أو حبسه عنه".

(٦) الحدّ: الحِدةُ والجرأة.

من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكتَ. فقال: ما ذكرتم فيكم من خيرٍ فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً. وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيَّهما شئتم. فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالسٌ بيننا. فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أُقَدّمَ فتضرب عنقي لا يقرّبني ذلك من إثمٍ أحبَّ إليَّ من أن أتأمَّرَ على قومٍ فيهم أبو بكر، اللهمَّ إلا أن تُسوّلَ إليَّ نفسي عند الموت شيئاً لا أجدهُ الآن. فقال قائلٌ من الأنصار: أنا جُذَيْلُها الُمحَكَّك، وعُذَيقُها المرجَّب[1]، منَّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى فَرِقْتُ من الاختلاف، فقلتُ: أُبسُطْ يدك يا

(١) ينسب هذا القول إلى الصحابي الجليل الحباب بن المنذر رضي الله عنه، ذكره الإمام أحمد في المسند، حديث رقم(٣٩١):٣٣١/١، وشرح الشيخ أحمد شاكر قول الحباب بن المنذر، بقوله:" الجذيل: العود الذي ينصب للإبل الجَرْبَى لتحتك به، وهو تصغير تعظيم، والمحكك: الذي يُحتَكُّ به كثيراً، أراد أنه يستشفى برأيه، كما تستشفي الإبل الجربى بالاحتكاك بهذا العود، وقيل: أراد أنه شديد البأس صلب المكسر، والعُذَيقُ هو النخلة، والمرجب: من رَجَب النخلة إذا جُعل لها ما تعتمدُ عليه لكثرة حملها، يعني أنه يعتمد عليه لكفاءته وجودة رأيه. المصدر السابق٣٢٧/١-٣٢٨. وانظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية:٤٧٦/٥، الهامش ٣، والبداية والنهاية، ابن كثير:٢١٦/٥، وفيه قال عمر بن الخطاب: فقلت لمالك: ما يعني: أنا جُذيلُها الُمحَكَّك، وعُذيقُها المرجَّب؟ قال: كأنه يقول: أنا داهيتها. وفي الكامل في التاريخ، ابن الأثير:١٩١/٢ زيادة في كلام الحباب هي: "أنا أبو شبل في عرينه الأسد، والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة"، وانظر: فتح الباري، ابن حجر،١٥٨/١٢، والتاريخ الإسلامي مواقف وعبر، عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، دار الدعوة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ودار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٢٢/٥.

أبا بكر، فبسط يده، فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعَتْه الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عباده. فقلت: قتل الله سعد بن عبادة. قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر؛ خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعةً، أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا، فإما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما أن نخالفهم فيكون فساداً..."[1].

وتختم كتب الحديث أخبار ما دار في سقيفة بني ساعدة بخطبة أبي بكر التي يبين فيها للناس زهده بالخلافة، وسبب قبوله بها، وذلك في ما رواه الحاكم(ت٤٠٥هـ) في مستدركه بإسناده من حديث إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف قال: "ثم قام أبو بكر فخطب الناس واعتذر إليهم، وقال: والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغباً ولا سألتها الله عز وجل في سر وعلانية، ولكني أشفقت من الفتنة ومالي في الإمارة من راحة، ولكن قُلِّدتُ أمراً عظيماً مالي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله عز وجل، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم..."، وعقب عليه الحاكم بقوله: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"، وأقره

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر، كتاب الحدود، حديث رقم (٦٨٣٠):١٢/١٤٨-١٤٩، واللفظ له، وورد في مسند الإمام أحمد بطوله بتغيير في بعض الصيغ، حديث رقم (٣٩١)١/٣٢٧-٣٣١. وورد بطولة بصيغ متقاربة في: تاريخ الرسل والملوك، للطبري:٣/٢٠٣-٢٠٦، والكامل في التاريخ، ابن الأثير:٢/١٨٨-١٨٩.

الذهبي(ت٧٤٨هـ)[١] وهذه الخطبة يدرجها بعضهم ضمن ما قيل ذلك اليوم تحت السقيفة، يوم الإثنين ولم تكن ذات صلة بما قيل في خطبة اليوم التالي حيث البيعة العامة.

بينما نجد بعضاً من كتب التاريخ في عرضها ما دار من محاورات وسجالات تحت السقيفة تركز على تفاصيل تاريخية خارج إطار الحوار الذي دار، وتذهب للتدقيق في من خالف من الأنصار أو من المهاجرين بيعة أبي بكر، أو تأخر عنها كما هو الحال في حديث الطبري(ت٣١٠هـ) المطول عن ذلك[٢]، وكذا مقدمات ابن الأثير(ت٦٣٠هـ) عن أخبار يوم السقيفة وما سبقه وما تلاه من نقاشات[٣]، أو نجد بعضها –كتب التاريخ– تصلها بما دار من حوارات بخصوص بيعة أبي بكر في اليوم التالي، ومن هنا ظهر شيء من التداخل في الترتيب الزمني عند بعض المؤرخين، ومن ذلك صنيع الحافظ ابن كثير(ت٧٧٤هـ) رحمه الله في سياق حديثه عن إجماع الصحابة على بيعة أبي بكر رضي الله عنه.[٤].

على أن ابن كثير(ت٧٧٤هـ) كان قد أورد صيغاً كثيرة في حديثه عن يوم السقيفة تحدد الفوارق بين يوم السقيفة حيث البيعة الخاصة يوم الإثنين ويوم

---

(١) المستدرك على الصحيحين، الإمام الحاكم النيسابوري، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م: ٣/٧٠.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٠٧-٢١٠.

(٣) انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق عمر بن عبد السلام تدمري: ٢/١٨٧.

(٤) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير:٥/٢١٨

البيعة العامة وهو اليوم التالي أي الثلاثاء، فمن ذلك قوله: "قلت كان هذا في بقية يوم الإثنين فلما كان الغد صبيحة يوم الثلاثاء اجتمع الناس في المسجد فتممت البيعة من المهاجرين والأنصار قاطبة، وكان ذلك قبل تجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم"(١)، وفي موضع آخر قال معلقا على طريقة مبايعة بعض الصحابة لأبي بكر:" وفيه فائدة جليلة وهي مبايعة علي بن أبي طالب إما في أول يوم أو في اليوم الثاني من الوفاة..."(٢).

وتفرد المؤرخون برواية الحوارات التي دارت بين الأنصار أنفسهم سواء أكانت قبيل وصول المهاجرين إلى السقيفة، أو بعد وصولهم، فمما دار من حوارات في السقيفة قبيل وصول المهاجرين — حسب المؤرخين–الخطبة التي ألقاها نيابة عن سعد بن عبادة ابنه، وهي التي سيتكئ عليها لاحقا رواة الأدب وجامعوه، وصيغتها عند ابن الأثير(ت٦٣٠هـ) في تاريخه: "وقال أبو عمرة الأنصاري لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأخرجوا سعد بن عبادة ليولوه الأمر، وكان مريضاً، فقال بعد أن حمد الله: يا معشر الأنصار، لكم سابقةٌ، وفضيلةٌ ليست لأحد من العرب، إنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم لَبِثَ في قومه بضْعَ عشرة سنةً يدعوهم، فما آمَنَ به إلا القليل، ما كانوا يقدرونَ على منعه، ولا على إعزاز دينه، ولا على دفع ضيم، حتى إذا أراد بكم الفضيلَةَ ساقَ إليكم الكرامة، ورزقكم الإيمان به وبرسوله، والمنعَ له

(١) المصدر السابق:٥/٢١٧.

(٢) المصدر السابق:٥/٢١٩. وفيه رد على مزاعم الرافضة الذين يزعمون أن عليّاً –رضي الله عنه– لم يبايع أبا بكر علناً.

ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشَدَّ الناس على عدوه ، حتى استقامت العرب لأمر الله طَوْعاً وكَرْهاً، وأعطى البعيدُ المقَادَةَ صاغِراً ، فدانت لرسوله بأسيافكم العربُ، وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ قرير العين، اسْتَبِدُّوا بهذا الأمر دون الناس، فإنه لكم دونَهم. فأجابوه بأجمعهم أن قد وُفِّقْتَ وأصبتَ الرَّأي، ونحن نولّيك هذا الأمر، فإنك مَقْنعٌ ورضا للمؤمنين"(١).

كما وردت حوارات لاحقة لخطبة سعد بن عبادة -رضي الله عنه- فقد شكك بعض من سمع حديثه في قبول المهاجرين، وحصل بينهم ترددٌ للكلام وأخذٌ وعطاء، فكان هذا الحوار الذي أورده المؤرخون دون سواهم، وهو بصياغة ابن الأثير:" ثم إنهم ترادوا الكلام فقالوا: وأبى المهاجرون من قريش وقالوا نحن المهاجرون وأصحابه الأولون وعشيرته وأولياؤه! فقالت طائفة منهم: فإنا نقول منا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا أبداً. فقال سعد: هذا أول الوهن"(٢). ومن الحوارات التي دارت بين الأنصار أنفسهم بعد وصول المهاجرين إلى السقيفة، تلك التي دارت بين الأوس والخزرج، وذلك حين أيقن الأوس أن الخزرج ربما يذهبون بالمجد العظيم حين تكون الخلافة فيهم، فراحوا يتراجعون عن تأييد سعد بن عبادة الخزرجي، يقول ابن الأثير(ت٦٣٠هـ):" ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد، قال بعضهم لبعض،

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير٢/١٨٩-١٩٠.

(٢) المصدر السابق:٢/١٩٠.

وفيهم أسيد بن حضير، وكان نقيباً: والله لئن وَلِيَتْها الخزرج مرَّة لا زالت[1] لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر. فبايعوه، فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه، وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب"[2]

في حين أن كتب السير والطبقات راعت ذلك واهتمت بالتحديد الزمني للفصل بين اليومين يوم السقيفة وما يتصل ببيعة الخاصة، وبيعة اليوم التالي حيث بيعة العامة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما عند ابن إسحاق (ت١٥١هـ).[3].

واهتمت كتب السير والطبقات ببعض التفاصيل المتعلقة بالأقوام والقبائل وما يختزل أحداثاً مؤثرة في توجيه الحوارات والسجالات التي دارت بين المهاجرين

---

(١) ورد الفعل الماضي منفيا بـ "لا" على وجه الإخبار والسرد، وهو استعمال قديم، يمكن أن نفسر به جواز أن يكون الإخبار باستعمال "لا" مع الماضي، ويكون قوله تعالى في سورة البلد (فلا اقتحم العقبة) إخبارا وليس دعاءً. والحال أن القاعدة التي استقرت في النحو العربي البصري خاصة توجب أن يكون دخول "لا" على الماضي مفيدا للدعاء أي إنشاءً إذا استعمل مرة واحدة، ولم يعطف عليه مضارع منفي، فهذه الرواية يمكن أن تدل على أن هذا الاستعمال لغة من لغات العرب في الحجاز في ذلك العصر.

(٢) المصدر السابق:٢/١٩١-١٩٢. والخبر بصيغ أكثر تفصيلا في: تاريخ الرسل والملوك، الطبري٣/٢٢٢.

(٣) انظر :السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق عمر بن عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م:٤/٣١١-٣١٢. علماً بأن هذا النص أورده كثير من المؤرخين، ومنهم الطبري، انظر: تاريخ الرسل والملوك: ٣/٢١٠.وجميعهم في ذلك عيال على ابن إسحاق.

والأنصار، إذا نجد مثالا على ذلك ما أورده ابن سعد(ت٢٣٠هـ) في طبقاته في حديثه عن بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في قوله: "أن النبي صلى الله عليه وسلم لما توفّي اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة، فأتاهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، قال: فقام حُبابُ بن المنذر وكان بدرِيّاً فقال: مِنَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ، فإنا والله ما نَنْفَسُ هذا الأمرَ عليكم أيها الرهط، ولكنَّا نخاف أن يليها أقوامٌ قتلنا آباءهم وإخوتهم. قال: فقال له عمر: إذا كان ذلك فمُتْ إن استطعت، فتكلم أبو بكر فقال: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، وهذا الأمر بيننا وبينكم نصفين كقَدّ الأُبْلُمَة، يعني الخوصة، فبايعَ أول الناس بشيرُ بن سعد أبو النعمان"(١).

إنَّ خبر يوم السقيفة يصاغ بطريقة تختزل الحوارات، وتقدم بعض المبررات لتخوف الأنصار من إمارة المهاجرين لهم، وأن أبا بكر أقنعهم بجعلهم وزراء، وهذه الطريقة التي سلكها ابن سعد(ت٢٣٠هـ) تصور نمطاً من مقصدية كتاب السير وبعض الأخباريين في توجيه الخبر نحو المسار الذي يخدم منهجية التأليف لديهم، وابن سعد(ت٢٣٠هـ) كان اهتمامه منصباً على أنَّ تخوف الأنصار لم يكن تخوفاً مصلحياً ضد المهاجرين، بل كان تخوفاً من ردود أفعال العصبيات القبلية التي ما زالت تسود الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية، أي تخوفاً من تولي بعض القبائل الأمر دونهم، وكذا على توضيح منزلة أبي بكر -رضي الله

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الزهري، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ١٦٦/٣-١٦٧.

عنه- بين الصحابة أجمعين وتأثيره الكبير عليهم، واستحقاقه للخلافة، بغض النظر عن تلك التفاصيل المؤثرة والحوارات الطويلة التي ساقها المحدثون بخصوص يوم السقيفة. ومما يستحسن ذكره هنا أن ابن سعد(ت٢٣٠هـ) في طبقاته عند حديثه عن سعد بن عبادة-رضي الله عنه- أورد مقطعا مختصراً فيه الحديث الطويل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوارد في صحيح البخاري بخصوص ما دار في سقيفة بني ساعدة.

ويلحظ من طريقة سرده تحديده الواضح لأجناسية ما دار تحت السقيفة، بقوله:" وبلغ الخبر أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما، فخرجا حتى أتيناهم ومعهما ناس من المهاجرين، فجرى بينهم وبين الأنصار كلامٌ ومحاورة ..."[1]، فهو هنا يحدد بأن ما حدث بين الفريقين كان حواراً ولم يكن خطباً.

أما مدونات الأدب ومجاميعه فذهبت لتجمع روايات المحدثين وكتاب السير والمؤرخين وتصوغ منها سردية جديدة، في هيئة نصوص أدبية مكتملة، وقد أسمتها بعض تلك المصادر خطباً، كما هو الحال في " البيان والتبيين" للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، و"عيون الأخبار" لابن قتيبة(ت٢٧٦هـ)، و"العقد الفريد" لابن عبدربه(ت٣٢٨هـ)، و"جمهرة خطب العرب" لأحمد زكي صفوت(ت١٣٤٥هـ)؛ وذلك من خلال تجميعهم لنتف من سجالات يوم السقيفة وحواراته، وتقديمها في شكل خطب مؤلفة لنص متكامل، كأنما هي قصة واحدة، فابن قتيبة(ت٢٧٦هـ) أورد خطبة أبي بكر بصيغة مختلفة نوعا ما

(١) المصدر السابق:٣/٥٦٩.

عن سائر المصادر- وإن ورد أصلها هنا أو هناك - ووافقه فيها ابن عبد ربه(ت٣٢٨هـ) في "العقد الفريد"، باختلاف يسير، ونص الخطبة عند ابن قتيبة(ت٢٧٦هـ)، هو: "أراد عمر الكلام، فقال له أبو بكر: على رسلك. نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً، وأوسطهم داراً، وأكرمهم أحساباً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرُ الناس ولادةً في العرب، وأمسُّهم رَحِماً برسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلمنا قبلكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم، فأنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو، آويتُم وواسَيْتُم، فجزاكم الله خيراً؛ نحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، وأنتم محقوقون ألاّ تَنْفَسُوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم"(١).بينما عند الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في "البيان والتبيين"(٢) قد قدم كلام الحباب بن المنذر الذي فيه:" أنا جذيلها المحكك..." على خطبة أبي بكر، على أنَّ جل المصادر قد أوردت كلام الحباب بعد كلام أبي بكر-رضي الله عنه-.

ويروي الجاحظ(ت٢٥٥هـ) نصَّاً مهماً، لم يرد عند أحد سواه، وهو قوله:" ...عيسى بن يزيد قال: قال أبو بكر رحمه الله: "نحن أهلُ الله، وأقرب الناس

(١) عيون الأخبار، ابن قتيبة، شرح وتعليق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م:٢/٢٥٤، والعقد الفريد، ابن عبد ربه، شرح أحمد أمين وأحمد الزين وإبرهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٤٩-١٩٦٥م:٤/٥٨-٥٩.

(٢) انظر البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت، ٢/٢٩٦-٢٩٧.

بيتاً من بيت الله، وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم. إن هذا الأمر إن تطاولت له الخزرجُ لم تُقصِّر عنه الأوس، وإن تطاولت له الأوسُ لم تُقصِّر عنه الخزرج. وقد كان بين الحيين قتلى لا تُنْسَى، وجَرْحَى لا تُداوَى. فإنْ نَعَقَ منكم ناعقٌ فقد جلس بين لَحَيَيْ أسد، يَضْغَمه المهاجريُّ، ويجرحُه الأنصاري" قال ابن دَأبٍ: فرماهم والله بالمسكِتة"(١).

واللافت للنظر أن كتب الأدب ومجاميعه أوردت صيغ خطبة سعد بن عبادة- رضي الله عنه- بين يدي من حوله من الأنصار قبل وصول الخبر إلى المهاجرين، وهي الصيغ الواردة عند المؤرخين، ولكن جاءت في كتب الأدب بتعديل كبير في الصيغ بما يتناسب مع طبيعة تآليفهم، وسياقات السرد لديهم، ونص خطبة سعد بن عبادة الوارد في "جمهرة خطب العرب"، هو:" لما قُبض النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا نُوَلّي هذا الأمر بعد محمد عليه الصلاة والسلام سعدَ بن عبادة، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض، فلما اجتمعوا قال لابنه أو بعض بني عمه: إني لا أقدر لشكوايَ أن أُسمعَ القوم كلهم كلامي، ولكن تَلَقَّ مني قولي فأسْمِعْهُمُوه، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله: فيرفع صوته، فيسمع أصحابه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشر الأنصار، لكم سابقةٌ في الدين، وفضيلةٌ في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب، إنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام لَبِثَ بضْعَ عشرة سنةً في

(١) المصدر السابق: ٢/٢٩٧-٢٩٨، وعرف عبد السلام هارون بابن دأب، وذكر أنه: عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب، كان يضع الحديث والشعر وأحاديث السمر، روى عنه محمد بن سلام الجمحي انظر: البيان والتبيين: ١/٣٢٤.

قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخَلعِ الأندادِ والأوثان، فما آمَنَ به من قومه إلا رجالٌ قليل، وما كانوا يقدرونَ على أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أن يُعِزُّوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضَيْماً عُمُّوا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلَةَ ساقَ إليكم الكرامة، وخصكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنعَ له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشَدَّ الناس على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طَوْعاً وكَرْهاً، وأعطى البعيدُ المقَادَةَ صاغِراً داخِراً، حتى أثخنَ الله عزَّ وجلَّ لرسوله بكم الأرضَ، ودانت بأسيافكم لهُ العربُ، وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ، وبكم قريرُ عينٍ، اسْتَبِدُّوا بهذا الأمر دون الناس، فإنه لكم دونَ الناسِ. فأجابوه بأجمعهم أن قد وُفِّقْتَ في الرَّأي، وأصَبْتَ في القول، ولن نَعْدُوَ ما رَأَيْتَ، نُوَلِّيكَ هذا الأمر، وأتى عمرَ الخبرُ، فأقبل إلى أبي بكر فقال: أما علمتَ أنَّ الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، يريدون أن يولوا هذا الأمر سعدَ بنَ عبادة؟ وأحْسنُهُمْ مقالةً من يقول: مِنَّا أميرٌ ومن قريشٍ أميرٌ. فمضيا مسرعين نحوهم، فلقيا أبا عبيدةَ بن الجراح فتماشَوْا إليهم ثلاثَتُهُم، فجاءوا وهم مجتمعون، فقال عمر: أتيناهم وقد كنت زويت كلاما أردت أن أقوم به فيهم، فلما أن دفعت إليهم ذهبت لأبتدئ المنطق. فقال لي أبو بكر: روَيداً حتى أتكلَّم، ثمَّ انطق بَعْدُ بما أحبَبْتَ، فنطق. فقال عمر: فما شيءٌ كنتُ أردتُ أن أقوله إلا وقد

أتى به أو زاد عليه..."[1]. ثم أعقبه أحمد زكي صفوت(ت١٣٤٥هـ) بما تكلم به أبو بكر-رضي الله عنه- من حديث مطول، وبيان مفصل في أحقية المهاجرين بالأمر، وكذا ما للأنصار من فضل.

فالنص بهذه الصيغة من حديث سعد بن عبادة- رضي الله عنه- ورد أصله عند كبار المؤرخين كالطبري(ت٣١٠هـ)[2] وابن الأثير(ت٦٣٠هـ)[3]، بتعديلات جوهرية لا تخفى لأدنى وهلة، وأيسر مقارنة، بينما لم يرد هذا النص ولا غيره من النصوص المشابهة عند المحدثين ولا كتاب السير والطبقات، الذين كانوا يبدَؤون رواية أخبار وحوارات سقيفة بني ساعدة من لحظة وصول أبي بكر وعمر ومن معهما من المهاجرين- رضي الله عنهم- إلى السقيفة، بل ورد الحديث عنها مجملا، كما مر من قبل.

ولا يفوتنا هنا الحديث عن مقولة الحباب بن المنذر-رضي الله عنه- التي سارت بها الركبان، وأضحت مثلاً من الأمثال، ودارت بين المصادر المختلفة بإضافات متنوعة، وهي قوله:" أنا جُذَيْلُها الُمحَكَّك، وعُذَيقُها المرجَّب"، فالميداني(ت٥١٨هـ) أورده في "مجمع الأمثال"، وأحال إلى أبي عبيد(ت٢٢٤هـ) إشارته إلى أن الحباب هو أول من قاله، بقوله: "قال أبو عبيد: هذا قول الحباب

---

(١) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٢/١٩٣٣م:١/٦١-٦٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، الطبري:٣/٢١٨-٢١٩.

(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير:٢/١٨٩-١٩٠. وسبق إيراد نص حديث سعد للأنصار في هذا البحث عند بيان ما تميزت به طريقة عرض المؤرخين.

بن المنذر بن الجموح الأنصاري، قاله يوم السقيفة منذ بيعة أبي بكر"[١]، ومر بنا من قبل أن ابن الأثير أضاف في صياغة خبر الحباب كلاما بعد المثل وهو قوله: "أنا أبو شبل في عرينه الأسد، والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة"[٢]، كما سبقه الطبري(ت٣١٠هـ) حيث أضاف كلاما طويلاً للحباب، منه قوله:" يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا واصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد...فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان، ممن لم يكن يدين، أنا جذيلها... "[٣] وهنا نجد عند الأدباء زيادات متنوعة، تتلو مقولة الحباب تلك التي غدت مثلا، فالجاحظ يرويها هكذا:" أنا جُذَيْلُها الُمحَكَّك، وعُذَيقُها المرجَّب، إن شئتم كررناها جذعة... فإن عمل المهاجريُّ شيئاً في الأنصاري ردَّ ذلك عليه الأنصاريُّ، وإن عمل الأنصاريُّ شيئاً في المهاجري ردَّ عليه المهاجري"[٤].

وقد اعتمد البحث على مدونات الأدب بخاصة "جمهرة خطب العرب" لاكتمال النصّ واستيفائه خصائص الأدبيّة التي سهّلت على الباحث كثيرًا

(١) مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م:١/٥٣.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير:٢/١٩١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢٠. ورواية الطبري في ٣/٢٢٣:" أنا أبو شبل في عِرّيسة الأسد..."، وهي الأقرب للصواب، وفي المثل: كمبتغي الصيد في عريسة الأسد، والعريس: الشجر الملتف يكون مأوى للأسد.

(٤) البيان والتبيين، الجاحظ: ٢/٢٩٦-٢٩٧.

استكناه الأفعال الإنجازيّة والكشف عن الخصيصة التداولية الكامنة في النصوص؛ وذلك لما بذله أحمد زكي صفوت من جهد بيّن في تجميع هذه الأقوال والحوارات التي جاءت شذرات هنا وهناك، وعبارات متناثرة في مدونات السنة وكتب التاريخ والسير، كلٌّ يرويها بحسب حاجته إلى النصّ، وبحسب الوجهة التي يختارها، بينما مدونات الأدب ولاسيما "جمهرة خطب العرب" راعت الجوانب الأدبيّة لهذه الحوارات والمساجلات، وهي التي حفزت الباحث على خوض التجربة التداوليّة التي يرجو بها أن يضيف جديدًا إلى قراءة هذه الأخبار والحوارات.

ثانياً: مدونة يوم السقيفة، هوية النص ومقصديته:

من الأهمية بمكان محاولة تصنيف النشاط القولي الذي تمَّ في مجتمع المدينة بين أفراد الطبقة المحيطة بالرسول صلى الله عليه وسلم غداة وفاته، ومعرفة أين يمكننا أن نُنزّل تلك الحوارات التي دارت بين المهاجرين والأنصار تحت سقيفة بني ساعدة، وما المكان الأنسب لها من مقامات القول الشفهي والسلم الأجناسي في النثر العربي القديم؛ لأنه "لا يمكن فهم نص أدبي فهماً حقيقياً دون إدراجه ضمن دائرة أجناسية معينة، ومقاربته مقاربة أجناسية"(١)، وبمحاولة وضع نصوص مدونة يوم السقيفة في مكانها الأنسب من خارطة الأجناس الأدبية فمن المناسب القول بأن الدرس البلاغي القديم أو الحديث لم يقصّر في الحديث عن الخطابة والأجناس القولية المتصلة بها من محاورات ومساجلات ومناظرات ومنافرات وبيان ما بينها وبين الشعر من فوارق، وكذا ما بينها وبين الأجناس الأخرى من صلات وروابط، ضمن السلم التصنيفي للأجناس، ووفق المعايير التصنيفية المتمثلة في معيار الصياغة ومعيار المضمون ومعيار التركيب،(٢) وفي نظري أن اتجاه سعيد يقطين في تحديد الأجناس والأنواع الأدبية هو الأقرب إلى الذائقة النقدية العربية، وهو يتناغم معها من خلال مقولة النمط التصنيفية،

---

(١) نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري، جدلية الحضور والغياب، عبد العزيز شبيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، تونس، ودار محمد علي الحامي، صفاقس، الطبعة الأولى،٢٠٠١م:٣٢.

(٢) انظر الأسس التي تم تقسيم الأجناس على ضوئها في القديم والحديث، وكذا أسس النظرية الأجناسية الغربية في: الأجناس الوجيزة في النثر العربي القديم، جميل بن علي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، جامعة سوسة، تونس، الطبعة الأولى،٢٠١٣م:٤٢-٤٥.

إذ ضمَّنها كل ما هو مشترك من صفات الكلام بصرف النظر عن الجنس والنوع ، ويستدعي الباحث مفهوم الصيغة، وهما صيغتان" القول والإخبار"؛ فالمرسل في صيغة القول يبلغ بما في نفسه أو يشرك المخاطب في القول، ويتجلى ذلك في المخاطبات والمحاورات والمراسلات والخطب والمساجلات، أما في صيغة الإخبار فيتم الإبلاغ عن شيء أو أمر لإعلام المخاطب بما وقع، ويبرز في الوقائع والحكايات والأخبار والتواريخ[١] وهذا النوع من القول الذي بين أيدينا مما يتصل بحوارات يوم السقيفة سواء في شكله العام من حيث هو خطابة مشاجرية، أو من حيث جنسه الفرعي من حيث هو خطاب محاورات أو مساجلات قولية أو مناظرات مبنية على تبادل الرأي بين فريقين متحاجّين، نظام خطاب يقترب كثيراً من نظام الخطب التقليدية المألوفة، يشترك معها في أمور ويفترق عنها في أمور، "وإذا كنا نُقرُّ بأن الشكل مكون أساسي من مكونات الأجناس الأدبية على اختلافها وتنوعها، فإن الجنس في حد ذاته مفهوم مركب منفتح، ما أجمعت الدراسات على حدود بيّنة له، بل إن السمات الأجناسية تتغير بتغير العصر وتختلف باختلاف الأثر، ولا شك في أن مفهوم الجنس متصل بشكل النص ونشأته، وطريقة تلقيه وتقبله، فالجنس الأدبي محكوم بإكراهات لحظة النشأة ومشروط بزمان التلفظ والإنتاج، مثلما هو مشروط بهيئة معلومة وطبيعة خاصة ومحكوم بطقوس تقبّل محددة"[٢] ومن هنا فلا

(١) انظر: الكلام والخبر: مقدمة للسرد العربي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٩٧: ١٩٠

(٢) الأجناس الوجيزة في النثر العربي القديم، جميل بن علي:١٠.

يمكن إطلاق مصطلح الخطب على تلك المدونة، حتى وإن سماها كثيرون خطباً[١]، ومن المجازفة-كذلك- الجزم بتسميتها محاورات أو حوارات، فما بين يدينا من نصوص تمثل خطاباً له مقصديته الخاصة، ومنازعه المنتقاة، وتجنيسه الخاص، وتلك المقاصد لا تكاد تخرج عن مقصدين رئيسين، أولهما: الاستمالة والإغراء، وثانيهما: الإقناع والردع والتهديد، والأول منهما هو الغالب، وهما في هذا النوع من الخطاب الذي بين أيدينا في مدونة يوم السقيفة ظاهرٌ بيّن، وهما منزعان قليلاً ما يجتمعان، بل من النادر حدوث ذلك، إذ الصحابة- رضوان الله عليهم- من الفريقين، المهاجرين والأنصار في محاوراتهم وسجالاتهم ذلك اليوم كان يستميل كلٌّ منهما الآخر، وفي الوقت ذاته يهدّدُ بما يملك من مقومات وفضائل ومكانة، وقد وجدنا أرسطو(ت ٣٢٣ق.م) يشير-قديماً- إلى أن الخطابة: هي معالجات متنوعة في آن واحد، وربما تقود بعض حلقاتها إلى بعض، فيقول:" مهمة الخطابة هي معالجة موضوعات تستوجب المناقشة، أي موضوعات ليس لحلّها قواعد فنية(علمية)، وهي موضوعات تتصل بالنسبيات والمشهورات من الآراء غير الضرورية، كما هو الأمر في البرهان والمنطق؛ لأنها تعالج هذه الموضوعات أمام جمع من المستمعين غير قادر على الاستدلال التدريجي المتصل الحلقات، وغير قادر على تتبع الدليل البعيد المأخذ"[٢]، وفي النقد العربي القديم نبه إلى هذا مبكراً كثيرون، من أبرزهم ابن

(١) من هؤلاء أحمد زكي صفوت، في: جمهرة خطب العرب:١/٦١-٦٥.

(٢) الخطابة، لأرسطو، ترجمه وقدم له وحقق نصوصه إبراهيم سلامه، مكتبة الأنجلو المصرية،١٩٥٩م: ١٠٤.

وهب الكاتب(ت ٣٣٥هـ) بقوله: " والخطب تستعمل في إصلاح ذات البين، وإطفاء نائرة الحرب... وفي الاحتجاج على المخالفين..."[١].

ومن خلال مقولة النمط الأجناسية، ومفهومي الصيغة(القول والإخبار) وربطها بتعريفات التداولية في الدرس اللساني الحديث، وتكرار النظر في تطبيقاتها العربية سواء تلك التي انتابتها الحيرة في التحديد الدقيق لميدانها في مقابل فروع اللسانيات الأخرى، كتعريف محمد مفتاح حين عرفها بما بينها وبين الحقول الاجتماعية من تداخل، قائلا:" التداولية تتناول مظاهر عديدة بوجهات نظر متنوعة، ولكنها تكاد تتفق على أن اللغة اجتماعية يمارسها أناس يعيشون في مجتمع..."[٢] مروراً بالتعريفات العربية التي تقربها من التفكير التداولي الغربي بربطها بمفهوم إلقاء القول، وبإنشاء القول، أو الوظيفة الإحالية الذاتية كما في القاموس الموسوعي للتداولية[٣]، وصولاً إلى التعريفات التي تجعل التداولية حقلا معرفيا يهتم بالحركة الدلالية التي تحدثها الخطابات، وهي تحول اللغة إلى أعمال قولية بحسب حاجة التواصل بين الأفراد والمجموعات، متمثلة في الحقل المعرفي الذي تنظر من خلاله علوم اللسان عامة، والتواصل والخطاب خاصة إلى اللغة

(١) البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تحقيق أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، ط العاني، بغداد،١٩٦٧م :١٩١.

(٢) تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م:١٣٧-١٣٨.

(٣) القاموس الموسوعي للتداولية، بحث:" التداولية واللسان والعرفان" تعريب شكري المبخوت، المركز الوطني للترجمة، تونس،٢٠١٠م:٢٤.

بما هي نشاط فعلي[1]، نجد أن مدونة يوم السقيفة من خلال مقولات التجنيس العربية وكذا المقولات الكبرى للتداولية لدى محاولة وضعها في مكانها الدقيق من خريطة التجنيس الأدبي، فالأقرب أن يقال هي من الأجناس الخطابية الكبرى؛ أو من أجناس الخطابة المجلسية؛ فالخطابة منذ أن فرق أرسطو بين أنواعها ومقاصدها لا تكاد تخرج عن ثلاثة أجناس كبرى، هي: الخطابة الحملية ويناسبها في الخطابة العربية قسم من الخطابة السياسية التي تحث على الأفعال، وخطابة الجهاد، وثاني هذه الأجناس هو الخطابة الاستدلالية، ويناسبها في الخطابة العربية قسم من الخطابة السياسية ذات المنزع الإقناعي، كخطابة الوفود، وخطابة المناظرات بين الأمويين والخوارج، وأما الجنس الثالث فهو الخطابة القضائية، وهي مما لا محل له في المؤسسة الخطابية القديمة[2]، ولذا فإن أقرب الأجناس التي يمكن لها أن تنتظم حوارات يوم السقيفة هو الخطابة الاستدلالية، التي تتخذ الإقناع منزعا لها، إذ يقوم الخطيب أو المحاور حينها بوظيفة الطبيب النفسي؛ فالإصلاح بين الجماعات في خطابة إصلاح ذات البين عملية ترويضية إقناعية، تتطلب آليات مقامية خاصة، لا تشاركها فيها الأنواع الأخرى، ومن هنا تفطن القدامى إلى متانة الصلة بين الغرض القولي (المقصد)

(١) انظر تفصيل ذلك في: التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، صالح بن الهادي رمضان، منشورات النادي الأدبي بالرياض، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ/٢٠١٥م:٣١.

(٢) انظر: الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، صالح بن رمضان، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، ودار الفارابي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م: ٢٨٣.

والعمل القولي المناسب له في مثل هذا، يقول ابن قتيبة(ت٢٧٦هـ):" وليس يجوز لمن قام مقاماً في تحضيضٍ على حرب أو حمالة بدم، أو صلح بين عشائر أن يُقَلِّلَ الكلام ويختصره..."[١]، فالمقام هنا في جملة "قام مقاماً" عند ابن قتيبة هو الأساس المحدد للجنس القولي بل والمسيطر عليه، وبتأمل المقولات التداولية المعاصرة، نجد أن مقولة المقام هذه التي انطلق منها ابن قتيبة في معرض حديثه عن مقامات الخطيب تكاد تكون هي أساس النظرية وأهم دعاماتها، فإن "مقولة المقام- كما عند صالح بن رمضان- مولدة لعامة مستويات تحليل الخطاب التداولي، فهي تنهض على مفهوم مراتب التخاطب، أي أنواع المتكلمين في علاقاتهم بأنواع المخاطبين، وهي أكثر ميلاً ونزوعاً إلى البلاغة التفاعلية القائمة على الإقناع منها إلى بلاغة جمال العبارة وزخرف القول، فالمقام في أي نوع من أنواع الخطاب هو الذي يدفع بالمتكلم إلى اختيار الآليات والأدوات والروابط العاملة على التأثير والاستدراج والإقناع، وذلك حتى ينخرط المخاطب في الاعتقاد في الآراء التي يعتقد المتكلم أنه ينبغي الإقناع بها..."[٢].

فالمقام والمقصدية بما أنهما أساسان متينان في الفهم التداولي، وهما منطلق فهم فن الخطابة في القديم منذ المرحلة الأرسطية، والحديث في البلاغة الجديدة، فهما بقدر توافرهما في هذا الجنس القولي فإنهما يمكّنان من العودة إلى هذه الأدوات التداولية-بمسمياتها الجديدة- لقياس بعض مدونات الأدب النثرية

(١) أدب الكاتب، لابن قتيبة، شرح وتقديم علي فاعور، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، الطبعة الأولى، مصورة عن طبعة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م: "المقدمة" :٢١.

(٢) التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، صالح بن الهادي رمضان:٢٧.

العربية القديمة، التي لم تسلط عليها تلك الآليات، أو تقرب إلى القراء من خلالها.

ثالثاً: الوشائج التداولية بين مقصدية القول والأفعال الإنجازية:

التداوليّة في أبسط تعريفاتها هي دراسة اللغة إبّان العمليّة التواصليّة بين المتخاطبين، وتتألف هذه التواصليّة من جملة تقنيات كأفعال الكلام والاقتضاء والاستلزام الحواريّ ومبادئ التخاطب ومعتقدات المتكلم ومقاصده وغيرها من التقنيات التي ترفد المتكلم بآليات الخطاب، والتي تعين المخاطب على فهم المضمون، وعلى الانخراط في جهات الإقناع، وما تنطوي عليه مقاصد المتكلم في إطار المعتقدات والأعراف والسنن المشتركة بينهما.

والمقصدية مجال من مجالات اهتمام الدرس التداولي في مدرسة فلسفة اللغة بأكسفورد خاصة، وهي المدرسة الفلسفية التحليلية المعروفة بنظرية أفعال الكلام، وقد قدّمها عبد القادر قنيني بقوله: "يصحّ أن نعتبر نظرية أفعال الكلام العامة لأوستين أوّل محاولة جادّة تتجاوز بالفعل الطرح الأرسطي في كتابه الخطابة للقول الخطابي والدراسة البلاغية بإعادة تنظيم منطق اللغة الطبيعية على ضوء الدراسات اللسانية المعاصرة"(١).

وهي تمثّل الأساس في هذه العمليّة التداوليّة التي لا تنهض بها اللغة وحدها؛ إذ إنّه دون معرفة المقاصد لا يمكن أن يستدلّ بكلام المتكلم على ما يريد؛ لأنّ المواضعة – وإن كانت ضروريّة لجعل الكلام مفيدًا – فهي-أيضا – غير كافية؛ إذ لابدّ من اعتبار المتكلم أي قصده، وهي ما أشار إليه عبد القاهر

(١) نظرية أفعال الكلام العامّة – كيف ننجز الأشياء بالكلام"، جون أوستين، ترجمة عبد القادر قينيني: ٦.

الجرجاني(ت٤٧١هـ) بقوله:" إن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[١]، فالقصد ومواقع المعاني في النفس عند علماء العربيّة القدامى والمحدثين يعدّ من أهمّ مقومات الدلالة[٢]، فالقول عندهم بمراد المتكلم وقصده لا بلفظه[٣]، والكلام وحده غير كافٍ للإفهام وتبليغ الرسالة الخطابيّة التي يبتغيها المتكلم، بل تارة قد يُفهم منه خلاف مقصود المتكلم، وقد شاع بين الناس أنَّ كثيراً من المحبة يضيع بين منطوق لم يقصد ومقصود لم ينطق.

والمقصد هو الذي يوجّه دلالة القول فيكون للقول نفسه بحسب سياق التخاطب والتلفُّظ وبمقتضى وجهة المقصد دلالتان مختلفتان: دلالة إخبار ودلالة إنشاء، فقولنا مثلاً: إن أبا بكر كان ثاني اثنين، يمكن أن تكون له دلالة إخبار لمن لا يعرف التاريخ ومن لم يقرأ أسباب نزول الآية التي ورد فيها هذا الإخبار، وقد يكون له دلالة إنشاء، تعني: بايعوا أبا بكر فهو أحقّ الناس بخلافة الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة،١٤١٣هـ/١٩٩٢م: ٥٤. وانظر تفصيل دلالات ذلك في: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨م: ٢٥٠.

(٢) انظر: مبدأ القصدية والطابع التداوليّ لخطاب الشاطبي الأصولي- نحو تأويل كليّ، عبد الغني بارة، جامعة فرحات عباس – سطيف/ الجزائر:١٩، رابط شبكي للموقع بتاريخ ٢٠٢٠/٧/٩م: rodin.uca.es/xmlui/bitstream/handle/١٠٤٩٨/١٥١٥٩/٠١_Barra.pdf?١

(٣) إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية تحقيق مشهور حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، ١٤٢٣هـ: ٥٤/١.

ويعرّف الطاهر بن عاشور(ت١٣٩٣هـ) المقصديّة بأنّها: "هي الأعمال والتصرّفات المقصودة لذاتها، والتي تسعى النفوس إلى تحصيلها بمساعٍ شتّى أو تعول على السعي إليها مثالًا..."[(١)]؛ ووفقًا لهذا المفهوم التداولي فإنّ وجهة المعنى ترتبط بقصد المتكلم، وهذا هو أساس عمليّة الإبلاغ والتواصل[(٢)]. ولا تتحقق المقصدية باللغة التي يوظّفها المتكلم وحدها- مع أنّها هي الأساس في العملية التواصلية – وإنّما لابدّ من الأخذ في الحسبان ما بينه وبين المرسل إليه من أعراف وتقاليد وسنن مشتركة؛ ممّا يسهّل على المرسل إليه تلقي الخطاب وتفكيك شفرته، يشير عبدالهادي الشهريّ إلى أهمية المقاصد، وأنّ لها تأثيراً معيناً "في المرسل إليه (المتلقّي) ويتمّ توصيل القصد بين الطرفين عن طريق اللغة في مستوياتها المعروفة، ومنها المستوى الدلالي؛ وذلك بمعرفته للعلاقة بين الدوال والمدلولات وكذا بمعرفته بقواعد تركيبها وسياقاتها"[(٣)]، ولا شكّ أن اللغة هي الحامل لهذا الخطاب ولكنّها تارة تكون قاصرة دون أداء الرسالة المقصودة من الخطاب، وعندئذ يستكمل المتلقي فهمه مضمون الخطاب استنادًا إلى وعيه

(١) مقاصد الشريعة الإسلاميّة، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٧م:٥١.

(٢) نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية، مشروع لربط البلاغة بالاتصال، خليفة بوجادي، ضمن سجل بحوث ندوة "الدراسات البلاغية: الواقع والمأمول" بكلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مطابع الجامعة، الرياض، :٧٢٠.

(٣) إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م: ١٨٣.

بمقصدية المتكلم وما يرمي إليه؛ وذلك وفقًا للأعراف والتقاليد المشتركة التي تجعلهما متوافقين في العملية التواصليّة رسالة واستقبالًا.

وقد أشار عبد السلام المسدّي إلى هذه المقصديّة ضمن ما سمّاه قانون الانخراط الدلاليّ المشترك، قائلًا: "ونعني به أنّ كلّ كلمة يختارها المتحدّث في سلسلة كلامه تمثّل التزامًا بدلالتها التصريحيّة وبدلالتها الإيحائيّة، وهذا يؤدي إلى الالتزام الدلالي الواعي باختيار ما نختاره من الألفاظ والالتزام الواعي بالإعراض عمّا لا نختاره، وهذا القانون يرجع إلى ما يسمى في علم تحليل الخطاب بمبدأ التموضع، ويعني أنّ المتكلم ما إن يتفوّه بكلامه حتى يكون قد اتخذ موضعه داخل جزء من أجزاء كلامه"(١).

والرأي عندي –بعد أن جرى استعراض أبرز تعريفات التداولية في تطبيقاتها العربية ومن خلال روادها في العالم العربي المتأثرين بروادها الغربيين كشارل موريس وجاك موشلار وآن ريبول وغيرهم– فهي مهما ذهبت بعيداً فإنها تعود إلى المقصدية التي أطلقها أبو الخطابة أرسطو قديما وأشار إليها ابن وهب الكاتب(ت٣٣٥هـ) لاحقاً في النظرية العربية كما سبقت الإشارة إليه–، ويمكن القول بأن نظرية أفعال الكلام العامة لأوستين(ت١٩٦٠م) محاولة من المحاولات الجادة تتجاوز بالفعل الطرح الأرسطي في كتابه الخطابة للقول الخطابي والدراسة البلاغية بإعادة تنظيم منطق اللغة الطبيعية، ومثل صنيعه سارت أبرز الدراسات

(١) نحو وعي ثقافي جديد، عبد السلام المسدي، سلسلة دبي الثقافية، ٢٠١٠م: ٦٤، نقلا عن: المقصديّة في الخطاب السردي المعاصر – الرواية المغربيّة أنموذجًا – قراءة تداوليّة"، نعار محمد، أطروحة دكتوراه، الجزائر، جامعة أبي بكر بلقايد، ٢٠١٣م: ٥٨.

التداولية التنظيرية والتطبيقية والمنطلقة من رؤى مدرسة أكسفورد التي اعتمدت على المقصدية، والتشاكل الجامع، وترابط الكلام رغم ما يعترضه من انقطاعات وثغرات كما عند غرايس وسيرل في كتابه "المعنى والتعبير والمقصدية"، إذ كانت آلياتهما وإجراءاتهما التداولية مفيدة للدرس الأدبي(١).

وأيًّا كان الرأي في نظرية أفعال الكلام فإنّ الشائع في أمرها هو أنّ أوستين أوّل من أسّس لنظريّتها، وفتح بها الباب واسعًا نحو الدراسات التداوليّة؛ لأنّ الأفعال الكلاميّة من أهمّ أركان اللسانيات التداوليّة، وأبرز مباحثها، بل هناك من يعدّ التداولية كلّها مرادفة للأفعال الكلامية؛ ولهذا يعدّ أوستين(ت١٩٦٠م) أب التداوليّة(٢)التي هي بعامة تهتمّ "بتحليل الأفعال الكلاميّة ووظائف المنطوقات اللغويّة، وسماتها في عمليّات الاتصال بوجه عامّ"(٣). وذلك من منطلق أنّ وظيفة اللغة عند المهتمين بالتداوليّة لا تنحصر في الإخبار وعرض المعلومات، وإنّما وظيفتها هي إنشاء الأشياء بالكلمات (in saying doing) وهي ما تحدث من تغيير وتأثير في متلقّي الخطاب(٤).

---

(١) انظر: تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح:١٤٦.

(٢) انظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود نحلة، دار المعرفة الجامعية، مصر، ٢٠٠٢م: ٤١.

(٣) مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه، محمد الأخضر الصبيحي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، د.ت، د.ت: ٤٩.

(٤) انظر: نظرية أفعال الكلام العامّة –كيف ننجز الأشياء بالكلام–، جون أوستين، ترجمة عبد القادر قينيني: ٧-٨.

وتستندّ نظرية الأفعال الكلاميّة إلى أنّ الاستعمال اللغويّ ليس إصدار سلسلة من الأصوات فحسب، أو نظماً للحروف، بل إنجاز أحداث اجتماعيّة معينة- أيضًا- في الوقت نفسه(١)، والفعل الكلاميّ في أبسط تعريف هو "الوحدة الصغرى التي بفضلها تحقّق اللغة فعلًا بعينه (أمر، طلب، تصريح، وعد...) غايته تغيير حال المخاطبين"(٢)؛ وبهذا فإنّ الفعل الكلاميّ يُراد به الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد نطقه بمنطوقات معينة، ومن خلال منظومة من الأفعال النطقيّة والإنجازية والتأثيريّة، ولكن أبرز ما يمثّل ويحقق الفعل الكلاميّ هو الفعل الإنجازيّ الذي يكاد يساوي الفعل الكلاميّ، فكلّ فعل إنجازيّ هو فعل كلاميّ طبقًا لنظرية الأفعال الكلاميّة(٣)؛ ولهذا فكثير من الدارسين أطلقوا على الأفعال الإنجازيّة اسم الأفعال الكلاميّة غير آبهين بالنوعين الآخرين.

والإنجاز "طبقًا للمعنى الأصلي للكلمة وهو إنجاز الفعل في السياق، إمّا بمحايثته لقدرات المتكلمين؛ أي معرفتهم وإلمامهم بالقواعد، وإمّا بتوجّب إدماج التمرّس اللساني بمفهوم أكثر تفهُّمًا كالقدرة التواصليّة"(٤) وقد فرّق سيرل بين

(١) علم النصّ، مدخل متداخل الاختصاصات، فاين دايك، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م: ١٣٠.

(٢) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومنيك مانقونو، ترجمة محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م: ٧.

(٣) انظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود نحلة: ٦٩-٧٢.

(٤) النظرية التداوليّة، المفهوم والتصور، رضوان الرقبي، صحيفة المثقف، العدد ٤٢٦٨، بتاريخ ١٣/ ٥/ ٢٠١٨م: ٢٢.

الأفعال الإنجازيّة المباشرة والأفعال غير المباشرة؛ ذلك بأنّ "الأفعال الإنجازيّة المباشرة هي التي تطابق قوّتها الإنجازيّة مراد المتكلّم أي يكون ما يقوله مطابقًا لما يعنيه، أمّا الأفعال الإنجازيّة غير المباشرة فهي التي تخالف فيها قوّتها الإنجازيّة مراد المتكلّم"[١]، ولاشكّ أنّ التعبير بالفعل الإنجازيّ غير المباشر أكثر جمالًا وتأثيرًا في المتلقي، ولاسيما في أفعال التوجيهات والأفعال الدالة على الأوامر والنهي، فكلّما كان الفعل الكلامي الحاضن لها غير مباشر كان أكثر تأثيرًا في المتلقي؛ لما في ذلك من قيم التأدّب واحترام الآخر، ومثّل سيرل للفعل الإنجازي غير المباشر بقوله:" إذا قال رجلٌ لرفيقٍ له على المائدة: هل تناولني الملح؟ فهذا فعل إنجازي غير مباشر؛ إذ قوّته الإنجازيّة الأصليّة تدلّ على الاستفهام الذي يحتاج إلى جواب، وهو مُصَدَّر بدليل الاستفهام "هل"، لكنّ الاستفهام غير مراد للمتكلّم، بل طلب مهذّب يؤدي معنى فعل إنجازيّ مباشر هو: ناولني الملح"[٢] ، ولعلّ في الفعل الإنجازيّ غير المباشر تكمن كثيرٌ من قيم التداوليّة ومبادئها من تأدب وتعاون واستنتاج؛ لأنّ الدلالة المبتغاة في هذا الفعل لا يتحقّق بظاهر اللفظ، وإنّما تتطلّب التعاون الحواري على نحو أقرّه جرايس، وإستراتيجيّة الاستنتاج كما أشار إلى ذلك كثير من التداوليين ومنهم سيرل.

وقد قسّم جون أوستين(ت١٩٦٠م) الأفعال الكلامية بحسب قوّتها الإنجازيّة إلى خمسة أفعال: الأحكام، والقرارات والتعهّد والسلوك والإيضاح[٣]،

---

(١) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود نحلة:٥٠.

(٢) المرجع السابق:٥١.

(٣) المرجع السابق:٤٦.

غير أنّ هذه التقسيمات بدت متداخلة حتى قدّم سيرل بديلًا لها، وجعلها خمسة كذلك، وهي: الإخباريّات، والتوجيهيات، والالتزاميّات، والتعبيريات، والإعلانيّات، أو التصريحيات[١] وهذه المنهجيّة هي التي اعتمدتها في تناول الأفعال الإنجازيّة في هذه الدراسة.

أولاً–الإخباريات ومقاصد القول في خطابة السقيفة:

يعرف التداوليون الإخباريات بأنها:" الأقوال التي يكون الغرض الإنجازي فيها هو نقل المتكلم واقعة ما بدرجات متفاوتة، من خلال قضية (proposition) يعبّر بها عن هذه الواقعة، وأفعال هذا الصنف تحتمل الصدق والكذب..."[٢]، أو بمعنى آخر أنّ الهدف من هذه الأفعال تعهّد المتكلم بدرجات منوّعة بكون شيء ما حقيقة، وبصدق القضية المعبّر عنها، وجميع أعضاء هذه الفئة قابلة للتقييم في حدود الصدق والكذب[٣].

وقد كان للإخباريّات في الأقوال الخطبية التي كونت خطابة السقيفة حضور لافت للنظر، وتمثل محتواها القضوي في ادّعاء خيريّة الجماعة وأفضليّتها على الآخرين، ولا يختلف الأمر سواء أكان الخطيب من المهاجرين أو من الأنصار،

(١) انظر اعتراضات سيرل على أوستين بخصوص تقسيم الأفعال الكلامية، ومنهجيته فيها في: التحليل اللغويّ عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٣م:٢٢٩.

(٢) آفاق جديدة في البحث اللغوي، محمود نحلة:٧٨-٧٩.

(٣)انظر: التحليل اللغويّ عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق:٢٣٣.

فكلّ يدّعي أنّ قومه خير الناس وأنّهم أفضل من الآخرين؛ ولهذا كان الغرض من الفعل الكلامي هو أحقيّة الخلافة لمن انطبق أو قام عليه هذا الادعاء.

وتبدو الإخباريات واضحة في خطبة سعد بن عبادة من مطلع خطبته، إذ يقول: "يا معشر الأنصار، لكم في الدين سابقة، وفضيلة في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب، إنّ محمّدًا لبث عليه الصلاة والسلام بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل..."(١)، لقد ورد كلام سعد في صيغة سردية للتذكير بمنزلة الأنصار من الدعوة المحمدية في سنوات المحنة، وبعد عام الحزن، ولكن هذا التذكير لم يكن على وجه الإخبار الحقيقي؛ لأن عامة السامعين يعلمون تلك الحقيقة، فالمقصد ليس الإخبار بل استعمال السرد؛ لإنشاء واقع جديد هو أحقية الأنصار بالخلافة. وسردية الحجاج في هذا النوع من مقامات القول هي سردية الحمل على الإقناع لا الإخبار(٢)، ولم يرد سعد بن عبادة مجرد تبيان ذلك للناس الذين احتشدوا لسماع هذه المناظرة للحكم بالخلافة لمن يستحقّها، وإنّما جعل سعد بن عبادة من قوله هذا فعلًا كلاميًّا وراءه منجز، هو تحريض الأنصار على ألا يتخلّوا عن حقّ كفلته لهم أسبقيتهم في الدين وفضلهم في الإسلام

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢١٨، والكامل في التاريخ، ابن الأثير:٢/١٨٩، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦١.

(٢) أول من اهتم بسردية الإخبار ذي القيمة الحجاجية د. عبد الله صولة في بحثه الموسوم ب "كتاب الأيّام لطه حسين خطاباً حجاجيا"، ضمن أعمال ندوة "صناعة المعنى وتأويل النصّ"، منشورات كلية الآداب بمنّوبة، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٩٢: ٣٠٠.

واتّباعهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – ونصرتهم له إبّان خذلانه من قبل الكثيرين.

ثمّ ينتقل سعد بن عبادة في مقارنة بين ما قدّمه الأنصار للرسول صلى الله عليه وسلّم، وما تخاذل عنه المهاجرون–في زعمه– أول أمرهم معه، فيقول : " لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجالٌ قليل... فكنتم أشدّ الناس على عدوّه من غيركم"(١) لقد سعى سعد إلى افتكاك سلطة القول السردي التاريخي، وأُشرِب هذا القول بحكم قضوي فكانت القضية المعروضة في هذا القول هو خذلان المهاجرين الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأنصار له؛ فالمهاجرون– في مقتضى كلامه– لم ينصروه ساعة الضعف، ولم يذودوا عنه وقت الحاجة، وإنّما تركوه يتخطّفه كفار قريش وعتاتهم، فلاقى منهم ويلاتٍ من العذاب كما هو معروف في السيرة(٢)، حتّى هاجر إلى الأنصار فوجد عندهم النصرة والمنعة، فكانت مقصديّة سعد من هذا الفعل الكلامي هي أن يؤسس في المقام الأول لذاته شرعية القول وفق ما سماه أوستين بصدقية المتكلم من خلال الإثباتات

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٢١٨/٣، والكامل في التاريخ، ابن الأثير:١٨٩/٢، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:٦١/١.

(٢) بل لعل أقوال سعد بن عبادة هذه كانت مصدراً من المصادر التي اعتمدها مدوّنو السيرة، بصفته شاهد عيان، وسلطة قولية تاريخية، عايشت عصر الرسول صلى الله عليه وسلم.

الخبرية[1]وهي أنَّ من كان هذا شأنه في الدين وخذلانه لرسوله ليس من الحقّ أن يتوّلى أمر المسلمين، والعكس صحيح، وهو أنّ من نصر الرسول صلى الله عليه وسلم وآزره وآواه هو أحقّ الناس بخلافته.

وثمة فعل إنجازي آخر في هذه العبارة، وهي قوله: "في قومه" والمقصد منه هو أنّ المهاجرين خذلوا رسولهم مع أنّه منهم وهو ابنهم؛ فقد بنى سعد قياس إضمار مؤداه أن من تخاذلوا عن نصرة ابنهم وتخلوا عنه، لا يصلحون لولاية أمر الآخرين.

وعلى نقيض ذلك يؤكد سعد بن عبادة بأفعال إنجازية أخرى قوة الأنصار الذين وجد فيهم الرسول صلى الله عليه "المنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه"، والمحتوى القضوي من هذا كلّه هو الادّعاء بقوّة الأنصار وشجاعتهم وإخلاصهم للدين؛ وذلك ما يؤهلهم للخلافة التي تحتاج إلى صفات الإخلاص والقوة والمنعة والذود عن هذا الدين. وقد أنجز بذلك سعد بن عبادة فعلًا كلاميًّا قصديته أن الخلافة تحتاج إلى شجعان أفذاذ يجودون بأنفسهم ولا يدخرون نفيسًا في حمايته، وليس أحد غير الأنصار يصلح لذلك؛ وفق ما يؤكّده سعد بفعل إنجازي آخر في عبارته "دون الناس"، وقد جاء هذا الفعل بقوّة غرضية أخرى تفيد التعميم والشمول، وقد حقّق هذا الفعل مقصديّة سعد من

(١) انظر: نظرية أفعال الكلام العامّة – كيف ننجز الأشياء بالكلام–، جون أوستن، ترجمة عبد القادر قينيني: ١٦١.

القول، وهو إقصاء عامّة الناس – وأولهم المهاجرون – من هذا الفضل الذي تفرّد به الأنصار وحدهم.

ومثلما وظّف زعيم الأنصار الإخباريات في محتواه القضوي وعرض أطروحته في بيان أفضليّة قومه على المهاجرين؛ ومن ثمّ أحقيّتهم بالخلافة، فقد آثر كذلك زعيم المهاجرين أبو بكر–رضي الله عنه– الاتكاء على هذا النوع من الأفعال، التي وجد فيها مندوحة لبيان مكانة قومه المهاجرين وما لهم من صفات تعلي قدرهم وترفع شأنهم، وليست هي للأنصار أو لغيرهم من بيوت العرب، ومن شواهد الإخباريات في حديث أبي بكر، قوله:"نحن المهاجرون، أول الناس إسلامًا، وأكرمهم أحسابًا، وأوسطهم دارًا، وأحسنهم وجوهًا، وأكثر الناس ولادة في العرب، وأمسّهم رحمًا برسول الله صلى الله عليه وسلم..."[(١)]، وقد استوحى أبو بكر هذه الإخباريات من أعراف خطابة المنافرات والمفاخرات، باستعمال أسلوب التفضيل وحجج الكيف" أحسنهم – أكرمهم"[(٢)]، ويحاول أبو بكر–رضي الله عنه– أن يسرد بجملة من الأفعال الإنجازيّة أخبارًا قد يتفق معه الحاضرون تحت السقيفة عليها أو يختلفون، فالمهاجرون– كما وصفهم – هم أول الناس إسلامًا، وأشرف العرب حسبًا؛ أي هم من خير بطون قبائل

(١) جمهرة خطب العرب:٦٣/١. ووردت بعض جمل النص في: فتح الباري، لابن حجر، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (٣٦٦٧–٣٦٦٨)،٢٤/٧. وصيغة البخاري:" أوسط العرب داراً، وأعربهم أحساباً".

(٢) ينظر في خصوص حجج الكيف أو النوع: في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١١م: ٢٨.

العرب؛ لأنّهم من قريش، وزادهم نسبهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم شرفًا، كما أنّهم أحسن الناس وجاهة، وأكثرهم عددًا؛ وبذلك يريد أبوبكر أن يشير إلى أنّ قومه يبزّون الناس كمًّا وكيفاً، غير أنّ هذا كلّه ليس مبتغى أبي بكر، وإنّما أراد هذه الأفعال السردية أفعالًا لينجز بقوّتها الغرضية هدفًا أكبر ممًا يعرضه من أخبار، فهو يريد بذلك حجاجًا يحمل السامعين على الاقتناع بتفرّد المهاجرين وبزّهم غيرهم؛ وذلك من خلال المحتوى القضوي لهذه الأفعال وهو تأكيد خيريّة المهاجرين وأفضليتهم على الناس قاطبة؛ ومن ثمّ ينجز بذلك أحقيّتهم بالخلافة؛ إذ لا أحد ينازعهم هذه الأهليّة التي توجب الخلافة لهم، والسيادة على الناس قاطبة.

ثمّ يبسط أبوبكر طرحه ويؤكّد دعواه في أحقيّة المهاجرين بالخلافة بفعل إنجازيّ خبريّ آخر، وهو في قوله "لا تدين العرب إلا لهذا الحيّ من قريش"[1] ، فأسلوب الخبر المتضمن للنفي بـ(لا) والاستثناء (إلا) يؤكّد به تأكيدًا قاطعًا أنّ الخلافة لا يمكن إلا أن تكون لقريش؛ لئلا تختلف العرب وتشقّ عصا الطاعة على خليفة لا يكون منهم؛ فالفعل الكلاميّ المتضمن في هذا الجملة يخدم الفكرة، وينجز قصدية أبي بكر من هذا الخطبة، وهي تنبيه الأنصار إلى أمر خطير إن تولّى الخلافة غير قرشي، وهو تفرّق المسلمين وتمرّدهم على القيادة،

(١) عيون الأخبار، ابن قتيبة:٢/٢٥٤، والعقد الفريد:٤/٥٩، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر، كتاب الحدود، حديث رقم (٦٨٣٠):١٢/١٤٩، ومسند الإمام أحمد، شرح أحمد شاكر حديث رقم (٣٩١)١/٣٣٠، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٣.

ولا شكّ أنّ ذلك لا يرضى كلّ صاحب غيرة وحبّ لهذا الدين؛ وبذلك يحمل أبوبكر الناس على ألا يكون الخليفة إلا من قريش.

وفي مستهلّ حديث أبي بكر الصديق –رضي الله عنه – فعل إنجازي خبريّ اشتمل عليه قوله الذي يصف فيه حال أهله المهاجرين حينما بُعث فيهم الرسول — صلى الله عليه وسلم – "وهم يعبدون من دونه آلهة شتّى، ويزعمون أنّها لهم عنده شافعة ولهم نافعة"(١) ، فالمحتوى القضوي من هذا الفعل هو بيان حجم التحدّي الذي واجه المهاجرين حينما تخلّوا عن دين آبائهم ودخلوا في دين الإسلام، فقد كان في ذلك الخيار مشقّة عظيمة وخطر محقّق؛ لأنّهم عندما تخلوا عن دين آبائهم – وقد عظُم على أكثرهم أن يفعلوا ذلك – لاقوا ألوانًا من الإيذاء وضروبًا من العذاب.

وقد أكّد أبو بكر–رضي الله عنه– ما ذكره آنفًا بفعل إنجازي خبري آخر، وهو: "فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم"(٢)، والمحتوى القضوي من ذلك عرض الصراع النفسي والتحدي الاجتماعي الذي عاناه المهاجرون بمخالفة دين آبائهم ودخولهم في الإسلام، وعظم التضحيات التي قدّموها لرسولهم الكريم؛ لينجز بذلك أبوبكر فرادة المهاجرين وبزّهم غيرهم؛ ومن ثمّ يصوّب النتائج المنجزة من هذا الخطاب كلّه نحو قصديّته الأساس من الخطبة كلّها، وهي أنّ الخلافة يجب أن تكون للمهاجرين وحدهم. وواضح من كلام أبي بكر

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢١٩، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:٦٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢١٩، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:٦٣.

أنّه لا يتحدّث عن قريش عامّة، وإنّما عن المهاجرين منهم خاصّة؛ فلذا فإنّ الأمر في أقواله السردية مختلف عمّا ساقه سعد بن عبادة الذي كان يحمّل المهاجرين عيوب غيرهم من قريش، وليس المقام مقامًا للمفاخرة بالقبيلة والجماعة بقدر ما هو مقام مباهاة بالتضحيات ومفاخرة بالمنجزات، وذلك ما جعل أبا بكر ينتصر لأطروحته في آخر الأمر.

وقد خلص أبوبكر من هذا الطرح كلّه قائلًا عن قومه المهاجرين:" فهم أول من عبد الله في الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده"(١)، فأوليّة المهاجرين في عبادة الله، وأسبقيتهم في الإيمان، وصلّتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كونه من عشيرتهم، فعل إنجازيّ آخر مقتضاه القضوي تفرّد المهاجرين وأهليتهم للخلافة؛ ومنه يفضي الحديث إلى وجوب أن يكون الخليفة منهم لا من قوم سواهم، فهم أولى الناس بخلافته، فحجة الأسبقية في دخول الإسلام تتضمن أسبقية في معرفة الدين الجديد وصحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، والأسبقية في إدارة الأمة.

ولعلّ سعد بن عبادة مهّد الطريق أمام الآخرين من خطباء الأنصار يوم السقيفة ليستعرضوا جوانب من صفاتهم بأفعال إخباريّة بلغ فيها بعضهم حدّ التجاوز كالحباب ابن المنذر الذي قال مفتخرًا بالأنصار ومخاطبًا إيّاهم:" أنتم أهل العزّة والثروة، وأولو العدد والمنعة والتجربة، وذوو البأس والنجدة، وإنّما ينظر

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢٠، وجمهرة خطب العرب، صفوت:٦٣.

الناس إلى ما تصنعون"[١]، فهو بهذه الأفعال الإخباريّة يدّعي أنّهم لهم كل مجد وعزّة ومكرمة؛ لينجز بذلك فضلهم على المهاجرين؛ ومن ثمّ يجب أن تكون الخلافة فيهم، أو على أدنى تقدير أن تكون قسمة بينهم، وقد استعمل هو أيضا رواسب من الحجج التي تضمنتها المنافرات والمفاخرات الجاهلية وهي حجج العدد والكم التي جاء القرآن الكريم لمناهضتها، غير أنّ مبالغة الحباب بن المنذر في خطابه وبلوغه حدّ التحريض؛ بقوله :" فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد، وتولّوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحقّ بهذا الأمر منهم"[٢]، إنّ هذا الخطاب القاسي أتى بخلاف مقصديّة الحباب منه، وهو خروج بعض زعماء الأنصار من هذه المواجهة وتسليمهم بأن تكون الخلافة في المهاجرين، كبشير بن سعد الذي يقول رادًّا على الحباب وسعد قبله :" يا معشر الأنصار إنّا والله لئن كنّا أولي فضيلة في جهاد وسابقة في الدين ما أردنا به إلا رضا ربّنا، وطاعة نبيّنا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك"[٣].

(١) المصدران السابقان: الصفحات نفسها.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢٠، وجمهرة خطب العرب، صفوت:٦٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، والكامل في التاريخ، ابن الأثير:٢/١٩١ وجمهرة خطب العرب، صفوت:٦٥.

ثانيًا– التوجيهيات في خطابة السقيفة:

تعني التوجيهيات عند سيرل "محاولة جعل المستمع يتصرّف بطريقة تجعل من تصرّفه متلائمًا مع المحتوى الخبري للتوجيه"[١]والهدف الإنجازي من هذه الأفعال هو تأثير المتكلم على المستمع ليقوم بفعل شيء ما مستقبلًا، ومن الأفعال التي تندرج تحت هذا النوع: أطلب، أرجو، أسأل، ألتمس، أناشد، أتضرّع، أستعطف، أشجع، أسمح، أنصح، وبعض ممّا أدرجه أوستين(ت١٩٦٠م) ضمن ما سمّاه أفعال السلوك، مثل أتحدّى[٢]. وقد كانت عند أوستن– أيضاً– بمعنى الممارسات التشريعية، وهي "تتعلّق بممارسة السلطة والقانون والنفوذ، وأمثلة ذلك: التعيين في المناصب والانتخابات وإصدار الأوامر التفسيريّة في المذكرات وإعطاء التوجيهات التنفيذيّة القريبة من النصح والتحذير وغيرها..."[٣].

ولا شكّ في أنّ هذه الأفعال عند سيرل بدت أكثر انفتاحًا ممّا كانت عند أوستين، فعند سيرل أخذت تستوعب كثيرًا من الأفعال الكلاميّة التي تتفاوت بحسب قوّتها الإنجازيّة، فقد تكون محاولاتٍ ليّنة جدًّا، نحو: أغريك أو أقترح، وقد تكون عنيفة جدًّا، مثل: أصرّ أن تفعل كذا[٤].

---

(١) العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، جون سيرل، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٦م: ٢١٨.

(٢) انظر: التحليل اللغويّ عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق:٢٣٣.

(٣) كيف ننجز الأفعال بالكلمات، أوستين: ١٧٤.

(٤) انظر: التحليل اللغويّ عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق: ٢٣٣.

ولما كان المقام مقام تحريض على الأخذ بالحق في الخلافة، بخاصة في خطب زعماء الأنصار، كان لهذه الأفعال نصيب وافر من أفعالهم الكلاميّة التي قدّموا بها أطروحتهم وعرضوا بها قضيتهم، بخاصّة الأفعال الدالة على الأمر المباشر، فقد وظّفها زعيمهم سعد بن عبادة بوصفه سيدًا آمرًا، كما وظّفها الحباب بن المنذر الذي كان في طرحه مساوياً لسعد في المكانة، بل فاقه في الحدة، ولربما صرح بمالم يتمكن سعد من التصريح به أو قوله.

وربّما يكون التوجيه أكثر حدة بفعل إنجازي مباشر في خطبة الحباب بن المنذر–رضي الله عنه– الذي بدا أكثر مواجهة وصرامة في تحريض الأنصار، بقوله: "يا معشر الأنصار: أملكوا عليكم أمركم"(١)، فالدعوة صريحة إلى التمسّك بالخلافة التي هي أمرهم وحقّهم، ثمّ يمضي مدلّلًا لهذه المشروعية بأفعال إنجازية أخرى من جنس الإخباريات مر ذكرها آنفًا، محتواها القضويّ المنّ على المهاجرين؛ لأنّهم في أرض الأنصار وفيئهم وظلّهم، وأنّ الأنصار كذا وكذا، مفتخرًا بهم.

ولا نكاد نجد فعلًا إنجازيًّا من جنس الأمر مباشرًا أو غير مباشر في خطب المهاجرين إلا في موضعين، وكلاهما كان خارج المقام الذي يخيّم عليه الخلاف والصراع بين الفريقين؛ إذ كان الخطاب المتضمن لهذا الفعل بعد أن هدأت النفوس، وسلّم الأنصار بأن تكون الخلافة في المهاجرين، فكان الموضع الأول في قول أبي بكر موجّهًا الحديث للفريقين بأن يختاروا للخلافة من يرونه مناسبًا

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢٠. وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٤.

لها، يقول مخاطبًا إيّاهم:" هذا عمر وهذا أبوعبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا"[١]، فمقتضى هذا التوجيه هو ترك الأمر إلى المهاجرين والأنصار بأن يختاروا من يجمعون عليه، في خطاب يسوده الأدب والاحترام لرأي الآخر، وفي ذلك تكريس مبدأ المداولة وسياسة الشورى في اختيار الخليفة لا محالة، وليس فيه أي بعد من أبعاد الأمر والتوجيه والإرغام على فعل شيء، على نحو ما كان في خطب زعماء الأنصار؛ فلذا فإنّ الأمر هنا على الرغم من دلالته المباشرة بحسب دلالته الاصطلاحية والمعجمية، غير أنّه وفق مفهومه الكلامي مقتضاه الشورى ومبتغاه التوافق، وليس فيه شيء من الاستعلاء أو حمل المخاطب على فعل شيء كما يدلّ عليه غالب الأمر.

أمّا الموضع الآخر للأمر في خطاب المهاجرين فقد كان في ذات السياق حينما ردّ عمر وأبو عبيدة –رضي الله عنهما– على أبي بكر– رضي الله عنه– قائلين:"... ابسط يدك نبايعك"[٢]، فالفعل هنا كذلك يدلّ على الأمر دلالة مباشرة وفق دلالته المعجمية غير أنّه بحسب مقصديّته في الفعل الإنجازي يشي بالطاعة والإذعان والاتباع وكل معنى من المعاني التي تشتمل عليه كلمة "المبايعة" التي ورد مشتقها في عبارة الفعل الكلامي نفسها:"... نبايعك".

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، وفتح الباري، لابن حجر:١٢/١٤٩، وصيغة البخاري:" وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين"، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٥.

(٢)تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، وفتح الباري، لابن حجر:١٢/١٤٩، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٥، ولدى ابن كثير، في: البداية والنهاية٥/٢١٨، صيغة: " فقام عمر ...وقال:" هذا صاحبكم فبايعوه".

ويلحظ الدارس أنّه عندما يتحوّل الخطاب دفاعًا عن أطروحة المهاجرين وتأكيد أحقيّتهم في الخلافة يتحوّل معه الفعل الإنجازي من جنس الأمر إلى النهي، أيًّا كان الخطيب سواء أكان من المهاجرين أو من الأنصار، ولعلّ ذلك أوضح في خطب المهاجرين، كما في خطبة أبي بكر: "فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله"(١)، وقول أبي عبيدة :"فلا تكونوا أوّل من بدّل وغيّر"(٢) وفي العبارتين فعل إنجازي صريح من جنس النهي "فلا تنفسوا"، و"لا تكونوا"، والنهي كما هو معلوم يتجه إلى مخاطب أتى فعلاً ما أو نوى على أن يأتي فعلاً ما. وثمة فعل إنجازي غير مباشر في خطبة عمر–رضي الله عنه–: "ومن ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته"(٣)؛ أي لا تنازعونا في ذلك، ومثله في خطبة بشير بن سعد:" ولا نبتغي به من الدنيا عرضًا"(٤)، وهو يريد بذلك النفي نهي قومه؛ أي: لا تبتغوا بما قدّمتم في الإسلام عرضًا من الدنيا، ومع اختلاف القوة الغرضية التي عرض بها المحتوى القضوي للخطاب فإنّ المقصديّة

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١ وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٣. وورد في عيون الأخبار، ابن قتيبة:٢/٢٥٤، والعقد الفريد، ابن عبد ربه:٤/٥٨–٥٩ صيغة:" وأنتم محقوقون ألا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم"

(٢) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١ وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٥.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢٠، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١، وفيه:" من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه..." وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٤.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١، وفيه:" ولا نبتغي به الدنيا"، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٥.

من الأفعال الإنجازية هي التحذير من منازعة المهاجرين الخلافة، فليس ذلك من الإسلام في شيء.

وكثيرًا ما جاء الفعل الإنجازيّ الطلبي مباشرًا؛ وذلك لأنّ المقام يحتاج إلى الصراحة والوضوح، فالناس في أزمة، سواء أكانوا الأنصار الذين يرون أنّ حقّهم في الخلافة عرضة للضياع؛ لما للمهاجرين من مكانة وحظوة في بيت النبوة، أو كانوا المهاجرين الذين يرون أنّ الخلافة إن لم تكن في قريش افتتن المسلمون وضاع الدين؛ ولهذا كان الفعل الإنجازي الطلبي المباشر، ولا سيما النهي خير حاضن لهذا الخطاب الذي ينتظر منجزًا مؤثّرًا في الناس؛ ليخرجوا من هذه الأزمة، سواء أكان الانتصار من وجهة زعماء الأنصار بأن تكون الخلافة لهم، وهم أهل الدار، أو كان من وجهة المهاجرين بأن تكون الخلافة في قريش؛ ليستقيم الأمر.

ومن هذه الأفعال الإنجازيّة الطلبية الدالة على النهي دلالة مباشرة، ما جاء في خطبة أبي بكر-رضي الله عنه- مخاطبًا الأنصار ناصحًا إيّاهم بأن يعدلوا عن المطالبة بالخلافة بقوله: "فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله"(١)، فهو في ذلك ينصحهم أكثر من أنّه ينهاهم، وهكذا قد بدت حكمة أبي بكر-رضي الله عنه- في هذه المحنة، فهو هنا يأخذهم بالحجاج على أنّ ما عليه المهاجرون من فضل وحقّ في الخلافة إنّما هو منحة من الله وحده، فهو

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١ وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٣.

قدر من الله، والأنصار لا محالة يؤمنون أنّ التسليم بقضاء الله وقدره ركن من أركان الإيمان، وهذا أسلوب من الأساليب الخطابيّة التي أفضت بالأنصار في آخر الجدال إلى التسليم بأن تكون الخلافة في المهاجرين، فأبوبكر-رضي الله عنه- حمل زعيم الأنصار — في بعض مصادر الحديث — إلى أن يعترف لهم بذلك قبل أن يجمع الناس على خلافة أبي بكر، فهو في فعل إنجازي غير مباشر من جنس التوجيهيات يحمل سعدًا-رضي الله عنه- على العدول عن موقفه؛ إذ جاء في مسند أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ) قول أبي بكر لسعد :" ولقد علمتَ يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنت قاعد: "قريشٌ ولاة هذا الأمر فبَرُّ الناس تبعٌ لبَرّهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم"، قال: فقال له سعد: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء"(١)، فقد جاء أبوبكر هنا بحجة قويّة؛ فينتزع من سعد بن عبادة هذا الاعتراف، موظّفًا الفعل الإنجازيّ :"وأنت قاعد" ليحمله مكرهًا على الاعتراف، والمحتوى القضوي من ذلك شهوده وحضوره مجلس النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال ذلك؛ لينتزع بذلك أبوبكر منه الاعتراف بقوله: "صدقت"؛ ليمثل هذا كذلك فعلًا إنجازيًّا آخر، محتواه القضوي الإقرار ومنجزه موافقة أبي بكر في أطروحته، فكانت موافقته في بادئ

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم (١٨)، ١/١٧٦، وعلق عليه أحمد شاكر، بقوله: حميد بن عبد الرحمن الحميري التابعي الثقة يروي عن أمثال أبي هريرة وأبي بكرة وابن عمر وابن عباس، وذكر ابن سعد أنه روى عن علي بن أبي طالب، ولم يصرح هنا بمن حدثه هذا الحديث، وظاهر أنه لم يدرك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديث السقيفة وبيعة أبي بكر. وورد النص كاملا في: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ٣/٢٠٣.

الأمر على أن يكون المهاجرون الأمراء والأنصار الوزراء، وفق ما ورد في هذه الرواية.

ولعلّ الحباب بن المنذر–رضي الله عنه– لما بدا منه من حدّة في الخطاب كان– أيضًا– من أكثرهم اختيارًا للأفعال المباشرة من الافعال الإنجازية الدالة على النهي، فقال ممّا قال مخاطبًا قومه الأنصار: "ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم"(١)، ويكرر نهيه بقوة غرضية أخرى، قائلًا لهم بتحريض مباشر وصريح: "ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه"(٢)، فالمحتوى القضوي في كلّ هو التحريض على ثبات الأنصار على مطالبهم، والعصيان لما يعرضه أبوبكر؛ والقصدية التي يصبو إليها الحباب هي أن تكون الخلافة في الأنصار دون المهاجرين.

فإن كان الحباب بن المنذر–رضي الله عنه– قد اختار الأفعال الإنجازيّة الدالة على النهي للتحريض الصريح على التمسك بالخلافة فإنّ بشير بن سعد– رضي الله عنه– اختار الأفعال نفسها، لكنّه وظّفها توظيفًا مغايرًا، وكانت مقصديّته من ذلك هي كفّ الأنصار عمّا يطالبون به من حقّهم في الخلافة، فهو ينهاهم صراحة عن ذلك: " فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم"(٣)، فالمحتوى القضوي من هذه الأفعال كلّها هو تحذير بشير بن سعد قومه ممّا هم

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢٠، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١ وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٤.

(٢) المصادر السابقة: الصفحات نفسها.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١، ولم ترد فيه" ولا تنازعوهم"، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٥.

عليه من دعوة للتمسّك والمطالبة بما ليس لهم، فذلك بحسب حجّته عليهم يفضي إلى الخلاف والتنازع، وهذا الطبع لا يرضاه أحد من المسلمين؛ ومن ثمّ يقصد المتكلم من هذه الأطروحة كلّها أن تؤول الخلافة إلى المهاجرين، وهو بذلك في توافق مع المهاجرين في الطرح واتّحاد في الرؤية. ولعلّ خطبة بشير بن سعد من الخطب التي أدّت دورًا مؤثرًا في حسم الموقف وتهدئة الصراع بين الطرفين؛ إذ أخذت منحى مختلفًا عمّا كانت عليه خطب جماعته الأنصار، كما كان خطابه وفاقيًّا يحمل على الوحدة في روح إسلاميّة سامية تدعو إلى التجرّد ونكران الذات وعدم المنّ والمساومة بما قدّمته الجماعة أو الفرد من فضل ومكرمة في الدين.

ولعلّ أبا عبيدة–رضي الله عنه– يقف في الطرف الآخر موقفًا مشابهًا لبشير بن سعد– رضي الله عنه–؛ فلذا كان اختياره للفعل الإنجازي الدال على النهي المباشر على غرار ما فعل بشير، وموجّهًا لذات المقصد الذي كان يبتغيه، وهو نهي الأنصار عمّا هم عليه من موقف، يقول أبو عبيدة:" يا معشر الأنصار: إنّكم أوّل من نصر وآزر، فلا تكونوا أوّل من بدّل وغيّر"(١)، فهو يناهم نهيًا صريحًا بألّا يكونوا أوّل من بدّل دينه وغيّر مبدأه ومعتقده، والقصديّة من هذا القول هي التسليم بأن تكون الخلافة للمهاجرين، ولا شكّ أنّ عبارة أبي عبيدة على قصرها حملت إنصافاً واستفزازًا للأنصار في الوقت ذاته، الإنصاف من

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١، ولم ترد فيه:" وآزر" وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٥.

خلال اعترافه بأوليتهم في الدين، وأمّا الاستفزاز فهو في تحذيرهم بألا يكونوا أولًا في الحقّ وأولًا في الباطل، وخير الأمور خواتيمها لا محالة، وأبوعبيدة هنا قد أوجز وأبان وأنجز.

وربّما كان لموقف عمر بن الخطاب–رضي الله عنه– المهادن واكتفائه بتمثيل أبي بكر–رضي الله عنه– في مواجهة القوم إذ آثر ألا يشارك بخطبة طويلة في هذا الموقف المأزوم؛ اتّقاء لتصعيد الصراع؛ فقد كان عمر معروفًا بحدّته في الخطاب، وقال هو عن نفسه هذا مبيناً وموضحاً[١]،ولعلّ للسبب نفسه بدا القليل من الأفعال الكلاميّة في بعض عباراته التي شارك بها في هذا الموقف، فمن ذلك قوله: "ومن ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدْلٍ بباطل أو متجانف لإثم أو متورّط في هلكة"[٢]، فالمحتوى القضوي في هذا الفعل هو إنكار عمر على بعض الأنصار منازعتهم الخلافة، وفعل إنجازيّ مشابه لما اختاره أبوبكر للتعبير عن المعنى نفسه، وهو قوله: " ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم"[٣]، فالقوّة الغرضية في كلا الفعلين واحدة، وهي النهي غير المباشر،

(١) انظر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خبر يوم السقيفة:" وكنت أداري منه بعض الحدّ" في: مسند الإمام أحمد، حديث رقم (٣٩١)١/٣٢٧-٣٣١. وتاريخ الرسل والملوك، للطبري:٣/٢٠٣-٢٠٦، والكامل في التاريخ، ابن الأثير:٢/١٨٨، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر، كتاب الحدود، حديث رقم (٦٨٣٠):١٢/ ١٤٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢٠، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١، ولم ترد فيه:" إلا مدل بباطل..."، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢٠، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩٠، وصيغته:" لا ينازعهم إلا ظالم"، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٣.

والمقصود: أيّها الأنصار لا تنازعونا هذا الحقّ على حدّ قول أبي بكر، ولا تنازعونا سلطان محمد كما قال عمر، غير أنّ عمر بدا أكثر حدّة على نحو ما هو معروف ، ولعلّه لو استمرّ في الخطاب لتصاعد الموقف واحتدم الخلاف بين الفريقين أكثر؛ إذ هو في هذا الفعل الإنجازي لم يكتف بالإشارة إلى أحقيّتهم بالخلافة فحسب، أو وصف من ينازعهم بالظلم كما فعل أبو بكر، وإنّما مضى أبعد من ذلك؛ ليقرّر أنّ من ينازعهم مدلّ بباطل وآثم وهالك لا محالة، فهي كلّها أفعال إنجازية رادعة تحمل الأنصار إلى حيث يقصد عمر وهو التسليم بأنّ الخلافة حقّ للمهاجرين شاءوا أم أبوا.

ثالثًا– الالتزاميات في مقاصد خطابة السقيفة:

الالتزاميات عند التداوليين ومنهم أوستين(ت١٩٦٠م) هي الأفعال التي يلزم فيها المتكلم نفسه طوعًا بفعل شيء ما للمخاطب في المستقبل بحيث يكون المتكلم مخلصًا في كلامه أو بمعنى آخر أن يلتزم المتكلّم من خلال الفعل الذي ينطقه بتصرف أو نشاط معيّن(١)، وقد أعجب سيرل بهذا التوصيف وعدّه رائعًا، غير أنّه أخذ على أصحابه ومنهم أوستين (ت١٩٦٠م) بعض استشهاداته التي ليست من الأفعال الإلزاميّة في شيء، مثل: سوف، وأقصد، وأفتح وغير ذلك(٢)،ويدخل في هذه الأفعال ما يدلّ على الوعد والوصية(٣)، وقد وضع لها أوستين تصنيفًا تتفاوت فيه الأفعال من حيث القوة الإنجازية

(١) انظر: نظرية أفعال الكلام العامة–كيف ننجز الأفعال بالكلمات–، أوستين: ١٧٤

(٢) انظر: التحليل اللغويّ عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق:٢٣٤.

(٣) انظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود نحلة:٥٠.

للفعل، فيكون أقواها بالقسم، وتتراخى عندما لا يعدو الفعل نية بفعل أمر ما[١]،وكذا ممّا يميّز هذا النوع من الأفعال الكلاميّة أنّ القصد فيه هو الإخلاص في العمل، و"والمحتوى القضوي فيها دائما فعل المتكلم شيئاً في المستقبل"[٢].

وقد احتوت خطبة أبي بكر في نهايتها على فعل إنجازيّ غير مباشر، مكرّسًا به مبدأً من مبادئ التعهد والالتزام؛ إذ يقول:" فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا تُفْتَاتُون بمشورة ولا تُقضى دونكم الأمور"[٣]، ففي هذا القول محتوى قضوي، يضع بمقتضاه المتكلم صدقيته في الميزان فهو عقد أخلاقي بينه وبين الأطراف المتخاطبة في هذا المقام، وهو أنّه يعرض على الأنصار عقدًا سياسيًّا يريد توقيعه معهم، فإن أدّوا الطاعة ووافقوا على خلافة المهاجرين فإنّهم سيكونون شركاء في السلطة؛ إذ يكون منهم الوزراء وأهل الشورى الذين لا تُقضى الأمور دونهم، والمنجز من ذلك قرار الخلافة في المهاجرين لا محالة، والهدف غاية القصد من كلّ هذه الخطب والحوارات.

---

(١) انظر: في البراجماتية: الأفعال الإنجازيّة في العربيّة المعاصرة، دراسة دلاليّة ومعجم سياقي، علي محمود حجي الصراف، القاهرة، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م: ٤٧.

(٢)انظر: التحليل اللغويّ عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق:٢٣٤، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود نحلة:٥٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٢٢١/٣، وفيه:" ولا نقضي دونكم"، والكامل، ابن الأثير ١٩٠/٢، وفيه:" لا تفاوتون بمشورة" وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:٦٣/١.

ولعلّ لطبيعة المقام الذي خيّمت عليه روح الصراع في محاولة امتلاك الحق لم يكن ثمة مجال كبير لإبداء شيء من الالتزام أو التعهد أو أي فعل من الأفعال الإنجازيّة التي تندرج في هذا السياق، فإذا استثنينا مقولة أبي بكر-رضي الله عنه- السابقة التي تعهّد فيها للأنصار بشكل العلاقة السياسية التي ستؤطّر العلاقة بين المهاجرين والأنصار فلا نكاد نجد من هذه الأفعال إلا قليلًا، من ذلك ما جاء في خطبة بشير بن سعد- رضي الله عنه-: "وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدًا"(١)، فهو هنا يوظّف فعلًا من أفعال العقود الإنجازية الدالة دلالة مباشرة على الالتزام والتعهد كما يبديه المحتوى القضوي للفعل الإنجازيّ؛ وذلك بالقسم الصريح المغلظ؛ لينجز بذلك التزامًا على نفسه، حاصله أنّه مسلّم بالخلافة للمهاجرين، ولن ينازعهم في ذلك البتة، ولا شكّ أنّ خطاب بشير بن سعد أحدث تحوّلًا كبيرًا في الموقف؛ إذ تحوّل سعد بن عبادة والحباب ومن معهما لهذا الاختيار الراشد، فسلّموا من بعد بأن تكون الخلافة للمهاجرين وبايعوا أبا بكر رضي الله عنه.

ولئن كانت الأفعال الإنجازية الدالة على الالتزام قليلة قياسًا بالأفعال السابقة، إلا أنّها أنجزت تحوّلًا كبيرًا في موقف الأنصار، حتى رضوا بأن تكون الخلافة في المهاجرين، فالراجح أن التزام أبي بكر-رضي الله عنه- من قبل وتعهده بأن يجعل منهم الوزراء وأهل الشورى جعلهم يشعرون بالرضا

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٥.

والطمأنينة بأن مكانتهم لن تضمحل بعد رحيل من ناصروه وآووه وأحبوه صلّى الله عليه وسلّم، وربّما كان فيهم شيء من الخوف والقلق من مآلات الأمور إذا انتقلت الخلافة إلى المهاجرين. كما أنّ التزام بشير بن سعد وما أبداه من تعهد وقسم صريح بأنّه لن ينازع المهاجرين في الخلافة، كان من أهم الأسباب التي حملت زعماء الأنصار على التماهي معه في قبول أن تكون الخلافة في المهاجرين، ولا سيما أنّ بشير بن سعد هو كذلك واحد من الزعماء وسيد من السادات.

ولم يكن بعد رضا القوم وحسمهم أمر الخلافة بأن تكون في المهاجرين إلا المبايعة لمن يجمعون عليه من المهاجرين – وقد أجمعوا على أبي بكر– ولا تكون هذه المبايعة إلا بتعهد والتزام، ويتعاظم ذلك عندما يكون صريحًا؛ فمن هنا اختار عمر وأبو عبيدة–رضي الله عنهما– فعلاً إنجازيًّا صريحًا، فقالا لأبي بكر: "لا والله لا نتولّى هذا الأمر عليك"(١) وكان ذلك فعلًا محتواه القضوي الإقرار بأنّ أبا بكر– رضي الله عنه– خير منهم ومقدّم عليهم في ذلك، ومقصديته البيعة والولاء والطاعة لأبي بكر.

وممّا يلحظ على خطبة سعد عبادة–رضي الله عنه– خلوها من الأفعال الإنجازية الدالة على الالتزام، ولعلّ مردَّ ذلك إلى أنّ سعدًا كان يشعر بأنّه موتور أو صاحب حقّ، كما بدا ذلك واضحًا من نبرة خطابه؛ فمن ثمّ فليس هناك

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٥.

ما يجعله ملتزمًا بأمر أو يتعهد بشيء، فإن آلت الخلافة إليهم، فهم – بحسب قناعته – أهل حقّ ودار؛ فمن ثم ليس هناك ما يلزمه بشيء أو يجبره على تعهّد. وقد أكّد ذلك الحباب بن المنذر الذي كان صريحًا في خطبته.

رابعًا– التعبيريات في مقاصد خطابة السقيفة:

يسميها أوستين(ت١٩٦٠م) أفعال السلوك، وعنده" تختصّ بمجموعة من الأفعال التي لا يمكن حصر أطرافها بسهولة، ولكنّها تندرج تحت باب السلوك والأعراف المجتمعيّة، وأمثلتها: الاعتذارات والتهاني والتعازي والقسم وأنواع السباب والقذف والتحدّي"(١)، وقد تدلّ هذه الأفعال على "سلوك الآخرين، وعلى ما لاقوه من نجاح أو فشل في مزاولتهم لذلك النشاط أو ذلك السلوك، كما تتضمّن أيضًا المواقف وضروب التعبير عن أوضاع السلوك الماضية ممّا قام به الآخرون أو ما يحتمل أن يقع من تصرفاتهم"(٢) ؛ وبهذا فإنّ الأفعال التعبيريّة، هي: "تعبير عن حالات نفسيّة ويمكن لها أن تتخذ شكل الجمل، تعبّر عن سرور أو ألم أو فرح أو حزن أو عمّا هو محبوب أو ممقوت"(٣)، وهي عند سيرل بالمفهوم نفسه ولكن مع اختلاف المصطلح –كما بيّنا آنفًا– فالغرض الرئيس

(١) نظرية أفعال الكلام العامة–كيف ننجز الأفعال بالكلمات–، أوستين: ١٧٤، وانظر: التحليل اللغويّ عند مدرسة أكسفورد، ص ٢٢٣.

(٢) نظريّة أفعال الكلام العامة– كيف ننجز الأفعال بالكلمات–، أوستين:١٨٢، والتحليل اللغويّ عند مدرسة أكسفورد:٢٢٣.

(٣) التداولية، جورج بول، ترجمة قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م: ٩٠.

منها – بحسب سيرل – هو التعبير عن حالة سيكولوجيّة محدّدة، وأمثلة أفعالها: أشكر، وأهنئ وأعتذر وأعزّي وأرحّب[1].

ونظرًا إلى المقام النفسي العصيب الذي قيلت فيه هذه الخطب، فقد كان المجال مناسبًا لهذه الأفعال، فمنها ما جاء تعبيرًا عن كرامة الجماعة والاعتداد بها، ومنها ما جاء تعبيرًا عن كرامة الآخر؛ تلطيفًا لنفسه وتطييبًا لخاطره؛ أملًا في أن يسلّم بأحقيّة الخلافة للآخر، على نحو ما نجد هذا في خطب أبي بكر خاصّة.

فسعد بن عبادة–رضي الله عنه– يعبّر عن اعتزازه وامتنانه بما خصّ به الله قومه الأنصار، قائلًا: "حتى إذا ساق إليكم الكرامة، وخصّكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه"[2]، فالخطيب هنا يعبّر بهذا الفعل الإنجازي المصوغ في جمل سردية وصفية عن حالة نفسية خاصّة، وهي عن زهوه وفخره وإعجابه بأنّهم من صفوة الناس وخاصّة المسلمين، فلا شكّ أنّ من ساق الله إليهم رسوله وخصّهم بهذه النعمة ورزقهم الإيمان به وبرسوله وأثخن بهم عدوه، لهم خيار الناس، ومن ثمّ هم أحقّ الناس بخلافة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا المقصد من الفعل الإنجازيّ؛ إذ هو لا يريد مجرد التباهي والزهو والافتخار بهذه المعاني والصفات.

---

(١)التحليل اللغويّ عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق:٢٣٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٥.

وتزداد الأفعال الإنجازيّة الدالة على التعبير في خطبة سعد بن عبادة صعودًا في بيان فضل الأنصار على الناس قاطبة بفعل كلامي آخر، في قوله عن حال الرسول صلى الله عليه وسلم وقومه الأنصار: "توفّاه الله وهو عنكم راضٍ، وبكم قرير عينٍ"(١)، فهذا فعل إنجازيّ تعبيريّ؛ لما فيه من محتوى قضويّ، ليست دلالته تهنئة القوم، وزفّ البشرى إليهم فحسب، بل دلالته إثبات ما حظوا به من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ومن ثمّ التباهي والاعتزاز بما فعلوه مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا أعظم من قوم يتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ؛ وعليه فإنّ مقصديّة هذه الأفعال كلّها هي أن تكون الحجة الدامغة على أنّ الأنصار هم أحقّ الناس بالخلافة؛ لما لهم من هذه الفضائل التي ليست لغيرهم، أو ليست للمهاجرين على وجه التحديد.

وإن كان سعد بن عبادة–رضي الله عنه– وظّف هذا الجنس من الأفعال الإنجازيّة السردية في التعبير عن حالة نفسية خاصّة به وبجماعته فحسب، وكان محتواها القضوي تهنئة قومه على ما قدّموه لرسولهم عليه الصلاة والسلام، والاعتزاز بهم والزهو بصنيعهم، فإنّ أبا بكر–رضي الله عنه– لما له من حكمة وحنكة في إدارة الحوار وظّف هذا الفعل في اتجاهين مغايرين؛ كان الأول لتأكيد علوّ منزلة قومه المهاجرين، وسلطته أو صورته التأثيرية أو ما يسمى في الخطابة

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٢١٨/٣، والكامل، ابن الأثير ١٩٠/٢، وفيه:" قرير العين"، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:٦٥/١.

الأرسطية بالإيتوس[1]، وعبّر عن ذلك بأفعال إنجازيّة ذات قوّة غرضية مفحمة، من ذلك – بحسب ما ورد في إحدى روايات الجاحظ – قوله: "نحن أهل الله، وأقرب الناس بيتًا من بيت الله، وأمسّهم رحمًا برسول الله صلى الله عليه وسلم"[2]، فالمحتوى القضوي من هذا القول هو أنّهم ذوو خصوصية ومكانة لا يدانيهم فيها أحد، والقوة الغرضية في ذلك هي الإخبار بالجمل الاسمية التفضيلية التي هي أكثر قوّة في أداء المعنى من الجمل الفعلية، ثمّ إنّه بدأ إعلاء شأنهم بأنّهم أولًا (أهل الله) ثمّ أهل رسوله "وأمسّهم رحمًا برسول الله"، ثمّ إنّه يلحّ على تكرار لفظة الجلالة "الله" إلحاحًا واضحًا وكان يمكنه الاكتفاء بالضمير، ولكنّه كان يقصد ذلك؛ إذ الناس في هذا المقام بحاجة إلى خطابهم بمثل هذا الخطاب الروحيّ، والمقصديّة التي ينشدها أبوبكر–رضي الله عنه– من هذا كلّه هي أنّهم أحقّ الناس بمسؤولية دين الله وخلافة رسوله.

وأمّا الاتجاه الثاني الذي وظّف فيه أبوبكر–رضي الله عنه– هذه الأفعال فهو عمل سياسي حكيم يرمي إلى إحداث توازن بين الأطراف، إذ فيه تعظيم دور الأنصار وتقدير علوّ كعبهم في خدمة الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام، يقول في ذلك:" وأنتم معشر الأنصار من لا يُنكرُ فضلهم في الدين، ولا

---

(١) يراد بها: سمات الهيئة التي يجب على المتكلم أن يظهرها –كيفما كان صدقه– للمخاطب؛ لكي يترك لديه انطباعاً حسناً. انظر: تحليل الخطاب الحجاجي وفق استراتيجية الإيتوس في المشروع البلاغي لمحمد مشبال، غالم عبدالصمد، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، الجزائر، مجلد ٨، عدد ٥ ،٢٠٠٩م: ١٢٨–١٢٩.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ: ٢/٢٩٧–٢٩٨.

سابقتهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جِلّة أزواجه وأصحابه"[1] ففي هذا إنصاف للأنصار؛ وإقرار بفضلهم واعتراف بيّنٌ بمنزلتهم.

وفي فعل إنجازيّ آخر من خطبته يقول:" فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، وإخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء، وأنصار على العدوّ، وآويتم وواسيتم، فجزاكم الله خيرًا"[2]، فأبوبكر-رضي الله عنه- في المحتوى القضوي لِما قال ينصف الأنصار في زهو منه بمكانتهم وإعجاب بمنزلتهم في الإسلام، محتفيًا بكريم ما قدّموه، ومعدّدًا فضائلهم من نصرتهم على عدو الله، ومؤازرتهم للمهاجرين ومواساتهم لهم. ثمّ يأتي الفعل الكلامي الإنجازيّ التعبيريّ "جزاكم الله خيرًا" دالًا على الدعاء معبّرًا به أبو بكر عن الرضا التامّ بمّا قدّمه الأنصار من إيثار وتضحية ومؤاخاة لإخوانهم المهاجرين؛ ليكون المحتوى القضوي من هذه الأفعال الإنجازية كلّها الاعتراف بفضل الأنصار والشكر لهم على ما بذلوه في خدمة الإسلام، ولا شكّ أنّ المنجز بذلك في منتهى الخطاب هو تطييب نفوس الأنصار؛ ومن ثم مطاوعة أبي بكر-رضي الله عنه- فيما يقول والتسليم بما يطرح، وهذا ما كان في ذاك اليوم العصيب.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢٠، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩٠، وليس فيه:" وفيكم جِلّة أزواجه وأصحابه"، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٣.

(٢) عيون الأخبار، ابن قتيبة:٢/٢٥٤، والبيان والتبيين، الجاحظ:٢/٢٩٦-٢٩٧، والعقد الفريد، ابن عبد ربه:٤/٥٨-٥٩، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٣.

ويمكن أن يندرج تحت هذه الأفعال ما ذكره الحباب بن المنذر–رضي الله عنه– في سياق تحريضه قومه لئلا يفرطوا في الخلافة، قائلًا لهم:" فإنّ الناس في فيئكم وفي ظلكم..."[1]، فالمحتوى القضوي لهذا الفعل الإنجازيّ هو المنّ على المهاجرين؛ بكونهم ليسوا أهل ديار، وإنّما هم دخلاء على الأنصار؛ قاصدًا بذلك الحباب إضعاف موقفهم؛ لأنّهم بحسب قوله إنّما هم عالة على الأنصار، فيجب أن يكونوا تبعًا لهم لا قادة، ومأمورين لا آمرين، محاولاً بذلك تحقيق إقصاء الخلافة عنهم وحصرها على الأنصار دون منازع.

ومن ضمن الأفعال الإنجازيّة التعبيرية في هذه الخطب والمحاورات ما ورد في قول عمر وأبي عبيدة–رضي الله عنهما– حينما وافق القوم على أن تكون الخلافة في قريش، وعرضهما أبوبكر–رضي الله عنه– ليختار المجتمعون واحدًا منهما، فقالا:" لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك، فإنّك أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة"[2]، فما أورداه من صفات تميّز أبا بكر عنهما: "أفضل المهاجرين..." في محتواه القضوي أفضلية أبي بكر عليهما، والفعل المنجز في هذا الخطاب هو تزكية أبي بكر والاحتفاء به وإعلاء قدره؛ وهو عمل سياسي فيه تأكيد أنّه لا أحد يدانيه في هذا الفضل؛ ومن ثمّ لا خلافة لغيره لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢٠، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١، وصيغته:" فإن الناس في ظلكم"، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، والكامل، ابن الأثير ٢/١٩١، وليس فيه:" وثاني اثنين إذ هما في الغار"، وجمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت:١/٦٥.

وقد ورد في أكثر المصادر ما يفيد عتب بعضهم على سعد بن عبادة بعد أن صار الأمر إلى أبي بكر، فقال قائل: قتلتم سعد بن عبادة. فقال عمر: قتله الله"[١]، ويمكن أن يندرج هذا تحت هذه الأفعال التعبيريّة؛ لما فيه من تعبير عن مشاعر الحزن على ما آل إليه سعد بن عبادة وفوات الأمر العظيم – الذي متّى نفسه به- عليه، ووفق ما تقتضيه هذه الأفعال، فالمحتوى القضوي من هذا الفعل الإنجازيّ هو تقريع سعد بن عباده على تسرعه في تأليب قومه الأنصار على إخوانهم المهاجرين، ومحاولته الاستئثار بالخلافة دونهم، ثم خروجه منها خالي الوفاض، والقوة الغرضية هي صيغة الإخبار "قتلتم"، ودرءًا للفتنة واتقاء لها أجاب عمر-رضي الله عنه- قائلاً: "قتله الله"، أي أن هذا أمر قضاه الله، وفي هذا أيضًا فعل إنجازيّ بقوته الغرضية الإخبار ومحتواه الدعوة إلى الرضا بقضاء الله وقدره.

خامسًا – التصريحيات في مقاصد خطابة السقيفة:

وقد سمّاها أوستن(ت١٩٦٠م) أفعال الإيضاح، ويقول إنّها: " أصعب الأصناف الكلاميّة تعريفًا، ولكنّها عمومًا تبيّن كيف أنّ العبارات المنطوق بها تجري مجرى الاحتجاج والنقاش، كما تكشف كيف أنّنا نستخدم الألفاظ، وبوجهٍ عامّ يصلح هذا الصنف لطريقة العرض"[٢]، وترجمها آخرون عند سيرل

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٢٢٢/٣، والكامل، ابن الأثير ١٨٩/٢، والصيغة عنده:" فقلت: قتل الله سعداً"، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (٣٦٦٧-٣٦٦٨)،٢٤/٧.

(٢) نظرية أفعال الكلام العامة-كيف ننجز الأفعال بالكلمات-، أوستين:١٧٥.

بمعنى الإعلانيات؛ وذلك لأنّ "الخصيصة المحدّدة لهذه الفئة هي أنّ الأداء الناجح لأي عضو من أعضائها يحدث تناظرًا بين المحتوى القضويّ والوجود الخارجيّ ... فإذا أنجزت أنا بصورة ناجحة فعل توظيفك رئيسًا للجنة معينة، إذن فأنت رئيس لهذه اللجنة، وإذا أنجزت بصورة ناجحة فعل إعلان حالة الحرب، إذن فالحرب معدّة"(١)، فالإيضاح بحسب أوستن، والتصريح أو الإعلان بحسب سيرل هو أنّ في كلّ فعل إنجازيّ قوّة إنجازية تجعل محتوى الفعل القضوي مساويًا للوجود الخارجيّ بمجرد النطق بالفعل.

ويتساوى في هذه الأفعال المحتوى القضوي والقوة الغرضية؛ ففي التصريحات: "أنت مطرود"، و"أنا مستقيل"، تستوي القوة الغرضية والمحتوى القضوي(٢)؛ بمعنى أنّ المنجز من الفعل الأول: الفصل عن العمل لا شيء غيره، وكذا في الفعل الثاني: التخلّي والترك واقع لا محالة، ولا تصدر هذه الأفعال عمن ليس له قوة إنجازية أي سلطة فعلية.

وهذه الأفعال تصلح لتفسير وجهات النظر وتقديم الحجج، وتوضيح استعمالاتنا للألفاظ(٣)، غير أنّ لطبيعتها المعقدة –كما بيّنا آنفًا – لم يكن لها حظّ وافر في هذه المدونة الخطابيّة، ربّما لأنّ النفوس لدى الفريقين مسكونة بروح الوفاق وحبّ الجماعة، أو لعل هذه السلطة القولية لم تكن قد استقرت

(١) التحليل اللغويّ عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق:٢٣٥.

(٢) انظر: العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، جون سيرل، ترجمة سعيد الغانمي:٢١٩، والتحليل اللغويّ عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق: ٢٣٦.

(٣) انظر: نظرية أفعال الكلام العامة-كيف ننجز الأفعال بالكلمات-، أوستين:١٨٣.

بعدُ عند طرف دون آخر بمقتضى حضور الرسول صلى الله عليه وسلم بين يديهم، صاحب السلطة الروحية العليا، وجسده الطاهر المسجى قريبا منهم لما يوارى الثرى بعد، وأما ما أبداه بعض زعماء الأنصار فهو لا يعبّر عن العامة.

ويمكن أن نصّنف في هذه الأفعال قول سعد بن عبادة–رضي الله عنه– لقومه: "استبدّوا بهذا الأمر دون الناس، فإنّه لكم دون الناس"، فهذا فعل إنجازيّ غير مباشر من جنس التصريحيات المحرضة على التمسّك بالخلافة؛ ولما كان التوجيه من سيّدٍ وزعيم تساوى في ذلك المحتوى القضوي للفعل وقوّته الغرضية، فكان ردّ فعل القوم أن أجابوه " بأجمعهم أن قد وُفِّقْتَ في الرَّأي وأصبت في القول، ولن نعدو ما رأيت، ونولّيك هذا الأمر، فإنك فينا مَقْنعٌ ولصالح المؤمنين رضا"(١)، فكان قوله لهم أشبه بإعلان صريح وليس مجرد توجيه وإصدار أمر؛ فمن ثمّ جاءت النتيجة المنجزة من الفعل مطابقة له؛ بأن وافقوه الرأي وأمّنوا على أن يكون الأمر له دون غيره.

وقد قلّت هذه الأفعال في هذه المدونة قياسًا بالأفعال الأخرى؛ وذلك لطبيعة الأفعال التصريحية التي يتساوى فيها المحتوى القضوي والقوة الغرضية؛ ممّا يجعل الفعل منجزًا لا محالة – بغض النظر عما تترتب عليه من نتائج – فتوظيف هذه الأفعال يصعّد الصراع بين الفريقين، ويقود–ربما– إلى الحرب والاقتتال، ذلك أن الصراع القولي يمكن أن يكون مقدمة للصراع المادي بين مختلف

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري:٣/٢٢١، والكامل في التاريخ، ابن الأثير٢/١٨٩–١٩٠. وصيغته:" قد وُفِّقْتَ وأصبتَ الرَّأي، ونحن نولّيك هذا الأمر، فإنك مَقْنعٌ ورضا للمؤمنين".

المتنازعين، وهذا ما لم يرده أي واحد من الطرفين، حتى زعماء الأنصار على الرغم من حدّتهم لم يندّ عنهم إلا رأي الحباب–رضي الله عنه– الذي بدا وكأنه يعلن القتال بقوله مهدّدًا المهاجرين: " أما والله لئن شئتم لنعيدنّها جذعة"(١)، ولعلّ هذا الفعل أقرب كذلك إلى هذا الجنس من الأفعال الإنجازيّة، ففيه تهديد وتصعيد، وإعلان ضمني للحرب، وقد فهم الفاروق عمر بن الخطاب–رضي الله عنه– ما يقصده الحباب، فردّ عليه: "إذن يقتلك الله، فقال الحباب: بل إيّاك يقتل"(٢)، فالحباب يلوّح بالحرب بوصفها بديلًا قد يكون حاضرًا بقوله :" إن شئتم"؛ ليجعل الأمر بيد المهاجرين، ومشيئتهم في ذلك تتمثّل في منازعة الأنصار في الخلافة – بحسب طرح الحباب – ولعلّ هذا ما جعل بشير بن سعد–رضي الله عنه– يتدخّل بقوله الوفاقي الذي حسم أمر الخلافة بأن تكون في المهاجرين بقول صريح:" وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدًا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم"(٣)، فانتهى الخطاب إلى أبي بكر–رضي الله عنه– فخيّر الناس بين عمر وأبي عبيدة–رضي الله عنهما–، وهما أجمعا على أن تكون الخلافة له دون منازع.

كما يمكن أن يُدرج ضمن أفعال التصريحيات ما ورد في روايات المؤرخين، وفيها:" ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد، قال

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير:٢/١٩١. وورد قوله هذا في: البيان والتبيين، للجاحظ: ٢/٢٩٧ بصيغة:" إن شئتم كررناها جذعة..."

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير:٢/١٩١.

(٣) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

بعضهم لبعض، وفيهم أسيد بن حضير، وكان نقيباً: والله لئن وَلَيتْها الخزرج مرَّة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً، فقوموا فبايعوا أبابكر. فبايعوه، فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه، وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب"(١)، فالفعل الإنجازي المتضمن في قول أسيد بن حضير-رضي الله عنه-: "والله لئن وليتها الخزرج مرة..." فعل تصريحيّ إذ تساوى فيه المحتوى القضوي والقوة الإنجازيّة، فالأول فحواه التعبير الصريح عن الخطر الذي سيطال الأوس إن آلت الخلافة إلى الخزرج ممثلّة في سعد بن عبادة، وأمّا الثاني (القوة الإنجازيّة) ممثلة في استجابة الأوس لمبايعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه..

وممَّا سبق يتضح أنّ الفعل الإنجازي في هذا النوع من الأفعال يكون - في مكوّنه من حيث محتواه القضوي والقوة الغرضية - أشبه بالفعل ورد الفعل، أو بمعنى آخر يكاد يكون الثاني صدى للأول؛ ولهذا كان هذا النوع قليلًا قياسًا بالأفعال الأخرى.

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري: ٢٢٢/٣، والكامل في التاريخ، ابن الأثير :١٩١/٢-١٩٢.

الخاتمة:

تناولت هذه الدراسة أول نص خطابي حواري في تاريخ القول السياسي بعد الإسلام، واهتمت بركيزتين من أهم ركائز الثقافة التداولية في خطابة يوم السقيفة، هما مقصديّة القول والأفعال الإنجازيّة، وقد كان لهذه الخطابة قيمة تداولية عالية؛ لأنها تعبر عن أولى مظاهر الصراع من أجل تأسيس تصور سياسي للحكم ولإدارة الشأن العام في المجتمع الجديد، فهي ليست أقوالا ذات وظيفة أدبية وإمتاعية فنية فحسب، بل هي أعمال قولية ذات وظيفة إنجازية، وهي مكون من مكونات الفعل السياسي، وتجربة التواصل حول مفاهيم الحكم والسلوك الاجتماعي. وقد توصّلت الدراسة في نهايتها إلى جملة من النتائج التي يمكن إجمالها في الآتي:

- كشفت الدراسة الاتجاهات المتباينة لمتناولي أخبار يوم السقيفة، كلٌّ بحسب مقصديّته وغايته من الرواية، وحسب الصورة التي أراد أن يبنيها لأطراف الصراع، فقد مال أهل الحديث إلى إجمال الرواية دون تفصيل، ولعلّهم لم يعبأوا بالخوض في التفاصيل؛ لصدمة الرواة من جلة الصحابة الذين أخذت مروياتهم بالفقد الجلل بموت الرسول صلى الله عليه وسلم، وبدا ذلك واضحًا من اللغة التي استخدموها في رواية هذه الأخبار، بينما راح المؤرخون وكتاب السير يسردون ما دار من حوارات بدون تحفظ أو ترتيب، أما أهل المدوّنات الأدبيّة فقد أخذوا يفصلون الروايات ليعطوا هذه النصوص طابعًا إنشائيًّا مختلفًا، ولا سيّما المتأخرون منهم؛ و لعل ذلك مما حفزني لاختيار هذه المدونة التاريخيّة؛ فمن ثمّ اعتمدت على مدوّنات أهل الأدب اعتمادًا كبيرًا

مع الإفادة من اختلاف الروايات حينما أجد عبارة هنا أو هناك مشحونة بقيمة تداوليّة أو متشحة بفعل كلاميّ يستدعي قراءته والوقوف عنده لبيان مقصديّة القول منه، وممّا يجدر ذكره أنّ المدونات الأدبيّة نفسها اختلفت في رواياتها وطريقة تراتبية هذه الأخبار، وقد أثرى هذه الاختلاف مادة البحث إثراء كبيرًا، فأفادت الدراسة من كلّ نصّ وجدته في المصادر كلها.

- وضحت الدراسة الخلط في بعض الروايات وبينته، ففرقت بين الخطب التي قالها أبوبكر الصديق-رضي الله عنه- يوم السقيفة (الإثنين) والخطب التي قالها اليوم التالي (الثلاثاء) بعد توليه الخلافة؛ وذلك لأنّ بعض هذه الخطب التي قيلت يوم السقيفة فيها بعض بوادر الخلاف وملامح الصراع، وقد اختلفت هذه المشاعر بعد تولي أبي بكر-رضي الله عنه- الخلافة.
- اختارت الدراسة المنهج التداولي؛ لطبيعة الخطاب التواصلي والتفاعل القولي الذي وجهته مقاصد المتخاطبين، فبرزت الأفعال الإنجازيّة بوصفها الركيزة الرئيسة في هذه الدراسة، فحاولت جاهدًا تتبّع مقاصد هذه الأفعال والكشف عن وظيفتها التواصليّة والمقصديّة، واكتفيت بها دون الآليات التداوليّة الأخرى من مقام وسياق وافتراض مسبق وغير ذلك من الأدوات التداوليّة التي يمكن أن يعالج بها هذا الخطاب في دراسات أخرى مكملة لهذه الفكرة.
- وظّف خطاب يوم السقيفة جملة من الأفعال الإنجازيّة المباشرة منها وغير المباشرة، وقد اشتمل كلّ منها على محتوى قضوي واضح، ومقصديّة منتهاها الحجاج بمشروعيّة الخلافة في جماعة الخطيب دون الآخرين، وقد

تفاوت توظيف هذه الأفعال ومحتواها القضوي ومقصديّتها من طرف إلى آخر؛ فمن ثمّ كانت الإخباريات أوفر حظًّا من غيرها ثمّ تلتها التوجيهيات فالالتزاميات فالتعبيريات فالتصريحيات، وكان ذلك لطبيعة كلّ فعل وما يمكن أن يؤدّيه من مقصد ومبتغى فضلًا عن أهميّة القضية التي يحملها هذا الفعل ممثلة في محتواه القضوي.

- شاعت الإخباريات في خطابات الطرفين؛ المهاجرين والأنصار؛ لما تتميّز به هذه الأفعال من آليات السرد والحديث عن الماضي والرصيد السابق وما يدّعيه كلّ طرف من أطراف الخطاب من صفات وخصائص تميّزت بها جماعته دون الأخرى، غير أنّ التوظيف اختلف من طرف إلى آخر، وكان كل طرف عنصراً من العناصر التي تثري أصول التاريخ الإسلامي وفترة البعثة وما جرى فيها من أحداث ووقائع، فمثلًا سعد بن عبادة–رضي الله عنه– وظّف هذه الأفعال للتذكير بمنزلة الأنصار وما قدّموه لخدمة الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم، بينما وظفها أبوبكر–رضي الله عنه– لذات الغرض ثمّ نحا بها منحىً آخر، ولعلّ ذلك كان من الأسباب التي حملت الأنصار على التسليم بأن تكون الخلافة في المهاجرين؛ إذ وجّه أبوبكر هذه الأفعال للاعتراف بفضل الأنصار ونصرتهم للرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته من المهاجرين، غير أنّ ذلك لا يؤهلهم للخلافة التي لا تدين فيها العرب إلا لقريش، فاتضح من ذلك مقصديّة أبي بكر من هذه الأفعال الإنجازيّة، فكان المقصد منها هو حمل القوم على التسليم بأن المهاجرين–

وهم من قريش- هم أولى الناس بخلافة الرسول القرشي صلى الله عليه وسلم.

- اتضح لنا أن منزلة الخطيب وطبيعة المحتوى القضوي غالباً ما يكون موجّهًا لاختيار الفعل الإنجازيّ، فحينما يكون الخطيب سيدًا وزعيمًا مثل سعد بن عبادة زعيم الأنصار يصبح ما يقوله من أفعال أقرب إلى التوجيهيات والتصريحيّات؛ لأنّ المتلقين من اتّباعه يفهمون أنّ هذا توجيه لإنجاز أمر أو لتنفيذ فعل ما، ولا يكون مجرد تحريض كما هو الحال في خطابة الحباب بن المنذر، فعلى الرغم ممّا أبداه من حدّة في أفعاله التوجيهية فإن ذلك لا يعدو أن يكون أكثر من أنّه تحريضٌ ودفعٌ للقوم إلى المواجهة.
- وظف الخطباء والمتحاورون الأفعال التوجيهية بنسبة عالية، ولعل ما قاد إلى ذلك واستدعاه إنما هو طبيعة المقاصد القوليّة عند الخطباء والمتحاورين في الفريقين ونوعية المقام وحساسيته، فقد وظّفها خطباء الأنصار لتحريض الجماعة بعدم التخلي عن حقّهم في الخلافة، بينما وظّفها خطباء المهاجرين وبعض خطباء الأنصار لتوجيه المطالبين بالخلافة من الأنصار إلى الكفّ عن هذا المطلب، واختلفت درجات التوجيه باختلاف المحتوى القضوي للخطاب ومنزلة الخطيب ومقصد القول، فالتوجيه مثلًا من زعيم الأنصار سعد بن عبادة ومن معه جنح كثيراً إلى الأمر "استبدّوا بالأمر، املكوا عليكم أمركم.." بينما عند أبي بكر ومن وافقه هو من جنس النهي، مثل:" لا تنفسوا، لا تكونوا، لا تنازعونا.."؛ وذلك لمقام التخاطب عند كلّ، فالأول محرّض ومطالب، فهو يأمر أتباعه لإنجاز مبتغاه، والآخر صاحب

حقّ بحكم قربه حكمًا ونسبًا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فمن ثمّ هو يذود ويدافع عن هذا الحقّ بالنهي وطلب الكفّ عن الاعتداء عليه.

- ولطبيعة الأفعال الالتزاميّة ومقاصدها لم يكن لخطباء الأنصار نصيب منها بخلاف المهاجرين وبخاصة أبابكر الذي وظّفها توظيفًا محفزًّا لإقناع الأنصار بأن تكون الخلافة في المهاجرين؛ إذ عرض عليهم التزامًا وقدّم لهم ميثاقًا بأن يكون من المهاجرين الأمراء ومن الأنصار الوزراء وأهل الشورى، وربّما لاتفاق بشير بن سعد مع المهاجرين في مبدئهم وظّف فعلًا التزاميًّا من جنس القسم ليعلن به موقفه الصريح من التسليم بخلافة المهاجرين.
- وللحمولة النفسية التي تنطوي عليها الأفعال التعبيرية وجد أبوبكر مندوحة للتأثير بها وجدانيًّا على الأنصار ولحملهم على التسليم بخلافة المهاجرين، وتجلّت مقاصده القولية في الاعتراف بفضلهم في الماضي والشكر لهم على صنيعهم والدعاء لهم بالقبول عند الله "جزاكم الله خيرًا" وغير ذلك من الأفعال التي صنعت لأبي بكر صورة الخليفة وصاحب السلطة الروحية الجديد، وخاطبت نفوس الأنصار أكثر من مخاطبتها عقولها وتركت فيهم الأثر الساحر؛ ممّا حملهم على التنازل عن المطالبة الخلافة.
- ونظرًا لطبيعة الأفعال التصريحية التي تستلزم تساوي المحتوى القضوي والقوة الغرضية كانت أقلّ حضورًا في هذه المدونة قياسًا بجميع الأفعال، ولا نكاد نجد لها حضوراً إلا في بعض كلمات سعد بن عبادة والحباب بن المنذر، وربّما لأنّ المتحاورين في أخذ وردّ وكلّ يعرض ما يقتضي التحاور فيه، والاتفاق عليه لم يكن لهذه الأفعال نصيب وافر في هذا الخطاب.

وبعد هذا فقد جاءت نصوص يوم السقيفة وأخبارها زاخرة بكثير من القضايا والموضوعات السياسية والاجتماعية، وهي لا تزال بحاجة إلى دراسات أخرى وفق آليات المنهج التداولي نفسه فضلًا عن المناهج النقديّة الأخرى، فالحجاج والافتراض المسبق والمقام والسياق وغير ذلك من آليات المنهج التداولي، كلّها يمكن أن تكون مداخل أخرى للكشف عن كثير ممّا في هذه النصوص من مقوّمات خطابيّة، ولتوضيح ملابسات العصر الإسلامي الأول وزمن التأسيس، كما يمكن أن يتناول باحث آخر الخصائص الإنشائية أو الآليات السرديّة؛ ليبقى بذلك الباب واسعًا لكثير من الدراسات التي ستثري هذه النصوص النثرية الفريدة لا محالة.

ثبت المصادر والمراجع:

١-آثار المدينة المنورة، عبد القدوس الأنصاري، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة الثالثة،١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

٢-الأجناس الوجيزة في النثر العربي القديم، جميل بن علي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، جامعة سوسة، تونس، الطبعة الأولى،٢٠١٣م.

٣-أخبار المدينة، محمد بن الحسن بن زبالة، جمع وتوثيق ودراسة صلاح بن عبد العزيز سلامة، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، الطبعة الأولى،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٤- أدب الكاتب، لابن قتيبة، شرح وتقديم علي فاعور، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، الطبعة الأولى، مصورة عن طبعة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٥- إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٦- إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق مشهور حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٧- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود نحلة، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، ٢٠٠٢م.

٨- أفاويق أدبية، أبحاث في الأدب العربي القديم، بحث "الأجناس النثرية الوجيزة للصحابة"، عبد الكريم بن عبد الله العبد الكريم، مكتبة روائع المملكة، الرياض، الطبعة الأولى،١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، وأصله بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية، ع١٥٩، ١٤٣٣هـ.

٩- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، تحقيق فؤاد السيد وآخرين، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨/١٩٨٨م.

١٠- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تحقيق أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، طبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى،١٩٦٧م.

١١- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.
١٢-التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، دار الدعوة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ودار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م
١٣- تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، د.ت.
١٤- تحليل الخطاب الحجاجي وفق استراتيجية الإيتوس في المشروع البلاغي لمحمد مشبال، غالم عبدالصمد، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، الجزائر، مجلد ٨، عدد ٥، سنة ٢٠٠٩م.
١٥- تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.
١٦- التحليل اللغويّ عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
١٧- التداولية، جورج بول، ترجمة قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
١٨- التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، صالح بن الهادي رمضان، منشورات النادي الأدبي بالرياض، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ/٢٠١٥م.
١٩- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٢/١٩٣٣م.
٢٠- الخطابة، لأرسطو، ترجمه وقدم له وحقق نصوصه إبراهيم سلامه، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ط،١٩٥٩م.
٢١- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة،١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٢٢- الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، صالح بن رمضان، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، ودار الفارابي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.
٢٣- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق عمر بن عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٢٤- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الزهري، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى،١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
٢٥- العقد الفريد، ابن عبد ربه، شرح أحمد أمين وأحمد الزين وإبرهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٤٩-١٩٦٥م.
٢٦- العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، جون سيرل، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
٢٧- علم النَّصّ، مدخل متداخل الاختصاصات، فاين دايك، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
٢٨- عيون الأخبار، ابن قتيبة، شرح وتعليق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٢٩- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
٣٠- في البراجماتية: الأفعال الإنجازيّة في العربيّة المعاصرة، دراسة دلاليّة ومعجم سياقي، علي محمود حجي الصراف، القاهرة، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
٣١- في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
٣٢- القاموس الموسوعي للتداولية، بحث:" التداولية واللسان والعرفان" تعريب شكري المبخوت، المركز الوطني للترجمة، تونس،٢٠١٠م.
٣٣- الكامل في التاريخ، عز الدين ابن الأثير، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.

٣٤- الكلام والخبر: مقدمة للسرد العربي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،١٩٩٧م.
٣٥- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، طبعة دار المعارف، الطبعة الأولى، د.ت.
٣٦- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
٣٧- مبدأ القصدية والطابع التداوليّ لخطاب الشاطبي الأصولي- نحو تأويل كليّ، عبد الغني بارة، جامعة فرحات عباس – سطيف/ الجزائر:١٩، رابط شبكي للموقع بتاريخ ٢٠٢٠/٧/٩م: rodin.uca.es/xmlui/bitstream/handle
٣٨- مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٣٩- مدخل إلى علم النصّ ومجالات تطبيقه، محمد الأخضر الصبيحي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، د.ط، د.ت
٤٠- المستدرك على الصحيحين، الإمام الحاكم النيسابوري، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
٤١- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٤٢- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومنيك مانقونو، ترجمة محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
٤٣- المغانم المطابة في معالم طابة، مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى،١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
٤٤- مقاصد الشريعة الإسلاميّة، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.

٤٥- المقصديّة في الخطاب السردي المعاصر – الرواية المغربيّة أنموذجًا – قراءة تداوليّة، نعار محمد، أطروحة دكتوراه، الجزائر، جامعة أبي بكر بلقايد،٢٠١٣م.
٤٦-منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية،١٤١١هـ/١٩٩١م.
٤٧- نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية، مشروع لربط البلاغة بالاتصال، خليفة بوجادي، ضمن سجل بحوث ندوة "الدراسات البلاغية: الواقع والمأمول" بكلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، مطابع الجامعة، الرياض الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.
٤٨- نحو وعي ثقافي جديد، عبد السلام المسدي، سلسلة دبي الثقافية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
٤٩- نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري، جدلية الحضور والغياب، عبد العزيز شبيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، تونس، ودار محمد علي الحامي، صفاقس، الطبعة الأولى،٢٠٠١م.
٥٠- نظرية أفعال الكلام العامّة –كيف ننجز الأشياء بالكلام-، جون أوستن، ترجمة عبد القادر قينيني، الدار البيضاء، دار إفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
٥١- النظرية التداوليّة، المفهوم والتصور، رضوان الرقبي، صحيفة المثقف، العدد ٤٢٦٨، بتاريخ ١٣/ ٥/ ٢٠١٨م.
٥٢-وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.